جمال الغيطاني

دفاتر التدوين: الدفتر الرابع

نوافذ النوافذ



دار الشروق

نوافذ النوافذ

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١١٣٢٣

ISBN 978-977-09-2416-6

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

جمال الغيطاني

دفاتر التدوين: الدفتر الرابع

نوافذ النوافذ

دار الشروق



نوافذ أولى

لم أطل من نافذة فى البيت الذى وفدت فيه إلى الدنيا لانتفاء الإمكانية، مثل بيوت الصعيد العتيقة كان مفتوحًا على الداخل، الباب الرئيسى فقط يجتازه الداخل أو الخارج، الغرف حول الفناء المتصل بالكون، لاسقف له، إلى الركن الأيمن الفرن، على مسافة منها الصومعة التى يحفظ فيها القمح أو الذرة وحبات الدوم، غرف ثلاث، تظل بأبوابها وعتباتها على الفناء. أعلى الجدار طاقة صغيرة، السلم يؤدى إلى الطابق الثانى، سطح تتكدس فيه أعواد البوص وأقراص الجلة، أى ما يلزم لوقود الفرن. بحرى غرفة علوية تطل على الرحبة التى تنتظم حولها البيوت، يتخلل جدارها نافذة، لكن لا يمكن النظر منها، ارتفاعها يفوق قامة إنسان بالغ، فتحة لمرور الهواء، وليس للنظر.

النافذة الأولى فى غرفة لا أذكر لحظة وصولى إليها. ولا أقدر على استعادة أيامى الأولى، أى لمحات منها. أولى الصور ترجع إلى عامى الثالث، بالتحديد سنة ثمانٍ وأربعين، خروجنا ليلاً والعتمة عميقة والنجوم كثيفة، أضواء كشافات الدفاع الجوى تمسح الفراغات العُلا بحثًا عن طائرات إسرائيلية مغيرة، فيما يلى ذلك ومع سريان سعيى عرفت أنها الغارة الوحيدة التى شنها سلاح الطيران المعادى المبتدئ وقتئذ. قدر للحظة من الوقت أن تبقى كعلامة أولى فى ذاكرتى، أما ما يسبق ذلك فلا أثر له عندى.

إقامتى مع الأهل فى غرفة. مستطيلة الفراغ، الطابق الخامس

الأخير، الباب يؤدى إلى السطح الفسيح المتصل بالأفق الدائرى، إلى دورة المياه المجاورة، أما النافذة ناحية الغرب. الفراغ الذى تؤطره مستطيل، تطل على الدرب، منها يمكن التطلع إلى الأفق الذى تأوى إليه الشمس وتلوح عبره الأهرام، غير أن إطارها يتجه بالبصر إلى البيوت المتجاورة، المتلاصقة، التطلع إلى الفراغات من السطح، لكن عبر النافذة تتحدد الرؤى، ربما لأن ثمة إطارا يوحى ويوجه، على قدر النافذة تكون الرؤية. شكلها يؤثر، دائرية أو مربعة أومستطيلة كنافذتى الأولى تلك على الوجود الموجود. المرئى. منها أطلت النظر. أمعنت ورحلت بالبصر، تابعت ورصدت وأطلقت العنان، لا أعرف كيف اكتشفت نعمة النفاذ بالبصر عبرها من الواقع المحدود، من فراغ الحجرة المؤطر، إلى الخارج، الدرب بالنسبة لى كان الخارج وقتئذ.

لابد أنها جلسة أمى، بعد أن تنتهى من شغل البيت، والذى يبدأ بترتيبه، وتنظيفه، وغسيل الملابس وإعداد الغداء قبل عودة الوالد من عمله فى الثالثة بعد نشرة الأخبار التى حفظت لحنها المميز المنبعث من المذياع الوحيد فى الحارة لدى السيدة روحية التى تسكن تحتنا، يخرج أبى بعد الظهر قاصداً مسجد وضريح مولانا الحسين، ثم إلى فندق الكلوب المصرى حيث يلتقى بالقادمين من جهينة والنواحى الأخرى، ويسامر الحاج عبده النوبى المدير النهارى وعبد المقصود أفندى المدير الليلى، ضخم الهيئة الذى يرتدى معطفًا ليلاً ونهاراً، شتاء وصيفا.

تطل أمى من النافذة تشم الهواء وتشوف الناس. تدعونى إلى جوارها، وترقب، تتابع تبديداً لوحدتها، لم يكن لها صلات واسعة بالجارات، ربما تطبيقًا لما يردده أبى دائمًا: «الاختصار عبادة».

العصارى عبر النافذة للصمت والمتابعة، للنظر والمراقبة، اعتدت

أيضا التطلع واقتفاء لحظات النهار الراحل. وإقبال الليل. إلى ما قبل دخولى المدرسة الابتدائية فى السادسة من عمرى لم يسمح لى باللعب فى الحارة، مخالطة الأطفال، لكننى لعبت «صبيان وبنات» مع كاميليا وعزة من أبناء البيت، درجات السلم حجرات، وعلب الكرتون الصغيرة الفارغة من سجائر سمسون، والدكتور البستانى، وبلمونت، أثاث البيت. الطابق الأسفل مقر وظيفتى. مرة قالت بنت الجيران ساكنى الطابق الأرضى: «تعال نعمل زى بابا وماما».

لم أفهم المقصود وقتئذ، لكننى استكنت عندما مست أناملها كتفى، ولامست بشفتيها شفتى، وتداخلت نظراتنا. كانت تستدعى مشهداً رأته خلسة وتعيد تمثيله بدقة وأمانة وفضول. لم أعرف معنى ذلك إلا بعد سنوات. لكننى عرفت الحب عبر النافذة لأول مرة عند جلوسى إلى جوار أمى وشقيقى الذى لم يتم عامه الأول مستسلما وراقداً على حجرها.

عيناها تتجهان، تسافران إلى نقطة ما، تبدآن من داخل الحجرة وتسعيان صوب مجهول غير محدد بسبب النافذة، لو أنها تتطلع إلى الجدار لتحددت المسافة، لاتضحت البداية والنهاية، لظهر القيام والوصول، ولكن النافذة تزيل أى حاجز، تلغى المدى، إنها الوصل بين المحدود المؤطر واللامحدود، بين الداخل والخارج؛ لذلك تبدو أى نظرة عبرها مغايرة أيا كانت مساحة الفراغ فى الخارج، سواء قامت بناية فى المواجهة أو لم تقم. سواء كانت الإطلالة على درب أو حارة أو شارع أو أفق مفتوح، لا نهائى. .

بنايتنا أعلى البيوت فى الدرب، خمسة طوابق، يمكن للرائى أن يتابع ويرقب سائر من يشرف عليها بدون أن يلحظه أحد. ربما من تلك

الأيام اعتدت التحديق عبر النوافذ إلى الأفق، أو النظر إلى ما يواجهنى، تخيل الصلات واستنتاج العلاقات، عندما أصل إلى فندق، أو مقر جديد أبلغه لأول مرة، قبل أن أفتح حقيبتى، أتطلع عبر النافذة أو الشرفة إلى ما يمكن رؤيته. سواء كان ممكنًا فتح المصراعين أولا، ربما يعود ذلك إلى إطلالة العصر تلك وقعادى صامتًا بحوار أمى ترى ماذا جال بخاطرها عبر تلك السرحات؟

لا يمكننى أن أعرف، ولن.. لا أقدر إلا على الاستعادة، الاجتهاد فى التذكر، لعل وعسى، النوافذ خير معين، لأن جميعها أطر، صغر حجمها أو اتسعت، ولأنها تحدد وتعين المنظور وما يمكن للبصر أن يراه، فالتحديد لا ينطبق على المكان فقط، إنما على الزمان أيضًا فما يمكننى استعادته من تلك القعدات لا يبدو فيه ما يقوم داخل الحجرة إنما ما كنا نتوجه بالبصر إليه، الفراغ الممتد حتى الأفق، ودرجات الضوء عند الأصيل، قدوم المغيب واكتمال الليل عبر المدينة التى تبدو لنا حتى خلاء الأهرام، فى الأربعينيات وحتى الستينيات كانت المبانى المرتفعة محدودة، معروفة بالاسم. عمارة غمرة ويمكن تمييزها خاصة ليلاً بإعلان ملون عن مياه غازية، وعمارة الإيموبيليا وسط المدينة. وفى الستينيات ظهر برج نحيل، مرتفع ناحية جاردن سيتى، مطل على النيل، عرف بإعلان السجائر الذى كان يعلوه برج البلمونت، تماما مثل عمارة غمرة التى تقع عند مفترق طرق، شارع الملكة ـ شارع رمسيس فيما بعد ـ والسكة المحاذية للخط الحديدى والتى عرفت بإعلان الكوكاكولا الذى يعلوها.

من يعرف ملامح المدينة، وأسماء البنايات الشهيرة، قصر عابدين، المجمع، ناحية جاردن سيتى حيث القصور، خاصة قصر الدوبارة،

ومبنى المطافئ والبريد والأوبرا وفندق البرلمان ناحية العتبة الذى ينزل به أعيان الصعيد ومنهم أثرياء جهينة وعضو البرلمان عنها.

أمي تعرف بيوت الحارة، تنسب الشقق إلى النسوة اللواتى يقمن بها، فهذه شقة أم سعيد، وتلك أم أحمد الإخوانجى، وتلك شقة سعودى الجزار فى بيت الفص، وأم فادية زوجة البنان، وتلك أم يوسف. ومن لا تعرفها جيداً تطلق عليها وصفًا. لا أذكر إلا سيدة واحدة كانت تقيم بالطابق الأرضى قرب فرن الحاج ناصيف. كانت تصفها بالحلبية، ربما لأنها كثيرة الشجار، تقف حافية فى الحارة وبدون ملاءة لف، بقميص النوم الذى يبرز ولا يخفى، تأتى من الحركات ما يدفع بالأمهات إلى إقصاء الأولاد عن النوافذ والشرفات حتى لا يخدش حياءهم، أو يخدش أسماعهم لفظ يستقر فى الذاكرة فيتسرب إليهم ما يفسد ويشين، ورغم إبعاد الصغار والشخط فى الأولاد إلا أن النساء وبعض الرجال الذين يتصادف وجودهم للراحة، أو لأن أعمال بعضهم ليلية، يخرجون ليطلوا ويتفرجوا. أحيانًا تأتى الحلبية بأمور غير متوقعة، مفاجئة، كأن تتجرد حتى من قميص النوم، أوتهجم على خصمتها وتمسكها من شعرها تطرحها أرضا، وتغرس أسنانها فى موضع لين، دسم.

أمي تبادر إلى إغلاق النافذة، رغم أنها مرتفعة، ولكنها تخشى الزعيق وما تقدم عليه تلك الحلبية، تنتابها خشية، ربما لما يجسده الوصف الذى أطلقته على المرأة، الحلبية نسبة إلى الحلب كما يعرف الغجر فى الصعيد، مجموعات رحل ينزلون على أطراف المدن والقرى، يحترفون الرقص والغناء واللعب مع القرود وسرقة الأطفال والدواجن، وأحيانًا الرجال، لنسائهم جلوة وجذوة وقدرة على الغواية

وتليين أنشف العقول وأمنعها، كثيرون هاموا ببعضهن، تركوا بيوتهم وسعوا خلفهن، إلى الأسواق والمضارب والموالد والخرابات، بمجرد ظهورهم يبادر الجميع إلى منع الصغار من الخروج إلى الساحات، إلى منع اللعب أمام البيوت، التشديد على عدم فتح الأبواب إلا بعد التأكد من الطراق.

فى الليل سمعت قبل نومى الحديث الخافت المعتاد بين أمى وأبى، ما من باعث على استكانتى وتدبير أمرى مثله، تناغمهما، همسهما أحيانًا يلفنى بغشاء من القربى، ويحفزنى على الترقرق، خاصة أن تعبيرهما عما يشعران به جهارًا كان نادرًا، وقد أخذت هذا عنهما.

قالت أمى: إنها شافت البنت فادية ابنة أم سهير تتبادل الإشارات عبر النافذة مع فتحى الكهربائى.

قال أبى بسرعة: «مالنا دعوة».

ردت أمى حذرة: إنها تخبره عما يجرى.

تعرف حرصه ألا يقع فى مشاجرة مع أى من الجيران، لا يزور أحدًا، ولا يزوره أى منهم، يستحسن الاقتصار وعدم الخلطة مع ناس مصر هؤلاء ورغم جنوحه إلى السلم. إلا أنه كان صارمًا فى منع الجيران سكان الطوابق السفلى من الصعود إلى السطح الممتد أمامنا.

أغمضت عينى على ما قالته أمى، فادية وفتحى الكهربائى يتبادلان الإشارات كيف؟

للمرة الأولى يتجاوز بصرى النافذة إلى هدف محدد، تعين بالاسم، فادية وفتحى، من قبل كنت أسرح بالنظر، أتطلع إلى الفضاء اللامحدود متابعا بعض الحدأة تحوم فى الأعالى، أتخيل لكل منها

حضورًا وهيئة مغايرة واسمًا بشريا. أنثويًا. أحاول متابعة روحية وتمييزها عن عزة عند تقاطعهما. عند الأصيل تنطلق أسراب الحمام من الأبراج الخشبية فوق أسطح المنازل، ألمح بعض أصحابها يلوحون بالرايات، لكل منها لون مغاير يهتدى به حمام الغيَّة، فى الخريف تظهر طيور لم أعرف لها مثيلاً، لم يجبنى أبى عن أسماء بعضها، لكنه دلنى على الهدهد، وأبى فصادة، وعصافير الجنة، لا أدرى بعد نصف قرن على رؤيتى الطيور الغريبة هل مازالت تأوى إلى أسطح بيوت مدينتنا التى اتسعت وتشعبت ونصبت فوقها الأطباق اللاقطة، وأجهزة التكييف المركزية، وللطيور دفتر يخصها فلأرجئ الحديث عنها.

أطلت فادية من النافذة المواجهة إلى اليمين. ترتدى جلبابًا من قماش رهيف اسمه رمش العين، تتناثر فوقه زهور صغيرة ملونة، الجلباب قصير الأكمام، هنا لابد من إيضاح، إذ لا فرق بين ما يرتديه النساء فى داخل بيوتهن وما يظهرن به عبر النوافذ والشرفات، بل إن بعضهن يقفن أثناء نشر الغسيل بقمصان النوم الخفيفة وقماشها فى الأغلب الأعم اسمه «باتستا» وآخر «ساتان» ورابع «تافتاه». حتى الصوف والقطن أجهل مصدر تسميتهما. وقفة النساء مرتديات تلك القمصان الخفيفة التى تظهر أثداءهن وبدايات المفارق، لها موضع آخر فى القسم الذى خصصته لنوافذ الرغبة.

تبدو لى فادية الآن كما رأيتها ذلك العصر. وجه وسط بين البيضاوى والمستطيل. عينان فسيحتان، فيما بعد كلما رأيت أنثى تتطلع إلىّ من العدم. عبر جدارية فرعونية أستعيد فادية. رأيتها تعبر الحارة فيما بعد، لكننى إذ تطل علىّ من تلك الأزمنة لا أراها إلا كما كانت تبدو فى إطار النافذة، خمرية الملامح. شىء فيها لا يبين، اقتربت منها

عندما بدأت اللعب فى الحارة، كنت أختبئ تحت السلم فى فناء بيتها، يبدو أنها فوجئت بى. أمسكت بيدى متسائلة عما أفعل هنا. فقلت - وجلاً -: إننى أخشى الآخرين. غير أن رائحة حضورها مستنى فتمنيت لو احتفظت بى مدة وأسست لمرجعية لم تفن. أقيس بها عبير كل من عرفت من إناث، فلكل منهن رائحة خاصة، وحضور الفرد لا يتكرر أبدًا. غير أن تلك فرعية، أما رائحة الحمراء فهى الأصل والمنبت!

لسة من الوقت لا أعرف مقدارها. فلم يكن الزمن وقتئذ إلا طلوع نهار، وعودة أبى عند الظهيرة، وتطلع من النافذة بجوار أمى، ونزول الليل، تلك علامات مواقيتى، لكن ما أثق به، كأنى أطالعه أمامى، أوقات الأصيل تلك. العصارى، ما قبل المغيب. لا تخلو نافذة من مُطل أو مطلة، كذلك الشرفات، ها هى.

رفعت فادية يدها على مهل كأنها تحيى ولكن قبل ملامسة أناملها لجبهتها ملست براحتها على شعرها كأنها تساويه. بحذر تطلعت إلى أمى، ترقب مقطبة، ابتسامة فادية تلغى ما عداها.

فى المواجهة إلى الجهة اليسرى بيت السنى، نسبة إلى الشيخ على السنى، بمجرد ظهوره فى الشرفة يعبق الهواء بالمسك، حرفته، موهبته، قدرته التى لا ينافسه فيها أحد، تركيب العطور لمحبى وزوار مولانا. يزود المتاجر والدكاكين المحيطة وحتى خان الخليلى والسكة الجديدة، بعد صلاة الجمعة يطوف بالمصلين، بقنينة تتيح قطرة للأكف. لا ينتظر شيئًا، يمرق بسرعة، لسبب خفى، غامض، كان ظهوره يبث الرعب عندى. يدفعنى إلى التوارى، ولهذا تفصيل عند ذكر نوافذ الفزعة.

فوق السنى تسكن عائلة فتحى الكهربائى، متوسط القامة، أبيض الوجه وشعر الرأس والجفون. «عدو الشمس». أفندى. أى يرتدى

قميصا وبنطلونا. لباس معظم رجال الحارة الجلباب بنوعيه بلدى وإفرنجى، فتحى يعمل بورشة كهرباء قرب الدرب الأصفر، لكنه يذاكر فى مدرسة ليلية بالفجالة ليحصل على البكالوريا.

يمكننا موقع بيتنا من رؤية جانبى الدرب. إذ إنه يقع على رأس العطفة التى تتجه إلى اليسار بزاوية قائمة. ولا يقوم فيها إلا منزلان. الأول ينسب إلى أم علية التى شاركت فيما بعد زوجها فى قتل ابنتها بعد أن ظهرت عليها أعراض حمل منه، والثانى لأم نبيل، ربة العائلة المصونة، المستورة وكلهم مستديرو الوجوه. فوق سطحه رأيت صفية الممتلئة، تقبل عبده سائق العربة الأجرة.

هكذا يلم الرائى من ناحيتنا بما يجرى على الجانبين، يمكنه أن يرى متحدثين متقابلين بنظرة واحدة. هكذا كان يمكننى رؤيتهما.

فادية تبتسم. تتراجع قليلاً حتى تخرج من مجال الرؤية. لكنها ماثلة بالنسبة لنا، نطل من أعلى نقطة فى الدرب.

حركة يدها دائرية.

يقف فتحى على أطراف أصابعه، يشير إلى الدرب.

تلوح بإصبعها يمينا وشمالا.

يثنى ذراعه

ترفع كتفيها، تمط شفتيها.

يبدو عليها ذعر مفتعل، تتسع عيناها، تشير بإصبعها إلى اللحظة. ما يعنى.. الآن الآن..

تراجع فتحى عن دائرة رؤيتنا، تميل أمى محدقة، تجاعيد ثلاث على جبهتها.

خلت النافذة منها أيضا، تراجعت خطوة أو مقداراً لا أستطيع قياسه وقتئذ أو عند استعادة اللحظة. ما أذكره وأكاد ماثلا أراه أمامى. دهشة بادية مع أن طبيعة أمى وما جبلت عليه الكتمان. ومداراة ما يجرى عندها. مالت قليلاً، لكن فادية وفتحى خرجا عن إطار الرؤية. أو المشاهدة. لكن النافذة الواقعة إلى اليمين استمرت مفتوحة تتطلع إلى النافذة التى تواجهها. وجرى بينهما محاورة ومداورة وأظهرتا ما استعصى علىّ فهمه أو استيعابه..



نوافذ الفزعات

ما من سبب جلى يفسر لى باعث فزعتى ومصادرها .

لماذا يبدأ ثباتى لحيظات مع رجفتى عند ظهورها قبل أن أجرى مرعوش القلب ، ساعيًا إلى التوارى عن كل بصر؟

الغريب أننى أعرفها ولا أجهلها ، أم نبيل ، البيت المواجه لمن يعرج إلى العطفة ينسب إلى تلك الأسرة ، أنهم الأقدم والأبعد عن المخالطة ، الأب تاجر تمباك ونشوق معروف ناحية التمبكشية . كل أفراد الأسرة مستديرو الوجوه . أثناء لعبى فى الدرب أقابل نبيل الذى سيكون زميلى فى المدرسة الابتدائية ثم الإعدادية ، والذى سينقطع عنى ، لن أراه إلا بعد ثلاثة عقود وبضع سنين فى صالة المطار ، كان مسافراً إلى العراق وقت تدفق المصريين نهاية السبعينيات ، وكنت متجها إلى تونس لمهمة .

نبيل ربعة مثل والده . بطىء اللفظ ، ثقيل اللسان ، يميل إلى الأمام عند بدء الحديث ، غزير الشعر ، أسوده ، طريقة تصفيفه تخفى دائرية دماغه ، لماذا كان ظهور أمه فى النافذة يبث عندى هذا الرعب كله؟

لا أعرف ، لا أجد جوابًا ، ثمة صلة بين ظهورها والنافذة ، شىء لا يتعلق إلا بها ، لذلك تعد أول نافذة يصدر عنها ما أخشاه وأسعى إلى الاختباء بمجرد مرورى فى متناول من يطل منها ، لكن كان باستطاعتى النظر للحيظات عند ظهور سهير شقيقته ، من جميلات الدرب ، غير أن جمالها من نوع خاص كثيف . تميل إلى امتلاء ، باهظة الأرداف رغم صغرها - لم تتجاوز الخامسة عشرة بعد - أما صدرها فبيان للناس ، ليس

صغر سنى سببًا فى نأيى عنها، بل وتجنبها، فى هذا الطور عرفت ثريا وعزة وثناء ومحاسن وكاميليا، لعبت معهن «صبيان وبنات»، مرتان تحت السلم عملت زى بابا وماما. مرة مع علية ـ رحمها الله ـ ومرة مع كاميليا.

ما أقصانى عن سهير غرابتها وتحفظها ورفعتها المشهرة، تجنبها الحديث إلى بنات الدرب، لم أسمع صوتها قط تنادى على صاحبة أو جارة، إنهم فى حالهم، قليلو الخلطة، لا يزورون ولا يزورهم أحد، لا يسمع لهم صوت، بعض من يظهرون التعالى يعلنون فى صمت أنهم متميزون، وأن وجودهم عابر مؤقت، يليه انتقال إلى إحدى المناطق الراقية، الدقى، مصر الجديدة، العباسية، لكن لم يسمع شىء من هذا عن عائلة أم نبيل.

ثمة غموض ألم بهم، باعد بينهم وبين الآخرين، حتى نبيل فى المدرسة لم يتحدث إلى أحد، لم يلعب الكرة، ولم يلتحق بأى نشاط، فى الفسح والمناسبات يقف وحيدًا، نائيًا، إنه نفس الأمر الذى أدى بى إلى الهلع مرات كلما لمحت أمه تطل عبر النافذة.

ما حير أمى أنها لم تر غسيلاً لهم، ولا تعرف كيف ينشرونه ليجف؟، أمام النافذة لا توجد حبال، سطح بيتهم أقل ارتفاعًا من سطحنا، لم نر أيًا منهم فوقه، فقط صفية، وامرأة عبده فريسكا مبيض النحاس الذى يسكن الطابق الأرضى. هل تمتد حبال من الناحية الأخرى المطلة على المسافرخانة، القصر المهجور، المسكون بأمنا الغولة، والعفاريت الليلية؟. لا يمكننا معرفة وجود فتحات من الجهة الأخرى، لكن عدم ظهور غسيل حير أمى، سمعتها مرتين تبدى عجبها، عندما تذكرهم يطالعنى وجه أم نبيل فتسرى عندى رعدة،

وجهها مستدير تمامًا، مؤطر بشعر فاحم، غزير، عيناها واسعتان لا تتطلعان إلى نقطة معينة، فى نفس الوقت تنظر إلى سائر الجهات، يظن كل راءٍ أنها تقصده هو.

مثلى، مثله، أنا المقصود بهذه البصة طويلة الموجة، الهادئة، السارحة نحوى فى نعومة. إذا طالتنى، لمستنى أنقلب حجرًا، أو قالب طوب فى جدار، أو قطعة كحلاء أو كلبا أعرج، زاد خشيتى غرابة الهيئة وندرة الوضع.

وضعها لا يمكن تحديده أو تخيله، يخفيه الجدار. لا يبدو إلا رأسها، بالتحديد وجهها، أكبر من الآخرين، تام الكروية، لا أرى عنقها، ذقنها يلامس الحافة، غير متصل بشىء. لا ذراعين، لا يدين، هكذا رأيتها، ليكن وقوع بصرى إلا خلسة. من الممكن ألا أبص عند مرورى. لكن مصادر الخوف مثيرة للفضول.

ذلك الوجه فى إطار النافذة من مستثيرات رعبى، سمعت جارتنا روحية تصف أم نبيل أنها مثل القمر، كدت أبول على نفسى، بدأ حذرى من القمر خاصة فى أماكن الخلاء. هذا الوجه فى إطار النافذة سيطاردنى عبر العدم.. بمجرد ظهوره فى أحلامى، يبدأ جثوم أثقال علىّ، تخرسنى، وتشلنى فلا يبقى بوسعى إلا إطلاق صوت مكتوم لكم أثار دهشة امرأتى وعيالى وكل من لازمنى أثناء هجعتى، قرب مرقدى. من النافذة تابعت النهارات واختلست النظر إلى الليالى، رصدت الجيران، وتابعت المشاجرات، وتوافد الباعة على الحارة، رأيت الكون وحركته، تعرفت على الحياة، وعلى الموت أيضًا.

فى الطابق الثانى يسكن حسن أفندى على، إذا قيل «موظف» فيما تلا ذلك من سنوات، حتى وقت تدوينى هذا. فإن الترجمة البصرية

للكلمة تستدعى هذا القوام النحيل. المستقيم كعصا. الملامح الحادة، المتجهمة، المنظار الطبى ذو الإطار المعدنى. سلسلة الساعة تطل من الصديرى، حسن من الأفندية القلائل فى الحارة، يحافظ على مظهره. هو ممن يوصفون بانخفاض الصوت، أى لا يسمع أحد صوت مشاجرة منبعثة من الشقة كما يحدث فى بيوت الدرب، زوجته نحيلة. أنفها حاد. أما أبناؤه الثلاثة صلاح وفتحى وحامد، فكل منهم يرتدى ساعة حقيقية، وهذا كاف لوصفهم، فلم يكن ذلك هينًا وقتئذ، والده يقيم منذ مدة بعد أن اقتضى علاجه أن يكون قريبًا من الأطباء، يخرج إلى صلاة الجمعة منحنيا، يتوكأ على عصا، ملتحفا عباءة سوداء، وحول رقبته شال من صوف لا يفارقه صيفًا أو شتاء، وكما يقول أبناء الصعيد «إللى يحوش البرد، يحوش الشرد. . ».

منذ صباح اليوم تسمع أصوات حركة غير عادية، مغايرة للمألوف. لم تتردد من قبل.

«الحاج على مات. . ».

لم ألم فى وقتى هذا بمعنى الموت، ما أعرفه أن الموتى لا يمكن رؤيتهم، ذهبوا إلى هناك. أين؟؟ لا يمكن التحديد، قبل وفادتى توفى شقيقى خلف، وبعد وصولى رحل أخى كمال الذى لا أذكر أى ملمح يدل على وجوده، صباح العيد، فى أيام جمع أخرى يقول أبى إنه ذاهب لزيارة الأولاد، تمده أمى بفطائر وبلح جاف، عند عودته تمنيت سؤاله، هل تمت الزيارة؟ هل رآهما؟ كيف هما؟ لماذا لا يصحبنى معه؟. لكن صمتهما، حزنهما البادى يلجمنى، لا أنطق الاستفسار، يطول إطراقهما فأرجئ.

حذرتنى أمى عندما دفعت بنفسى قليلاً حتى أرى ما يجرى، مدت يدها، بسطتها فوق ظهرى خشية اختلالى.

أمام المدخل رص عدد من المقاعد، حركة مغايرة لكل ما عرفته فى الدرب، رجال كثيرون لا نعرفهم. لحسن أفندى على أقارب صعايدة مثلنا يتاجرون فى الفاكهة جاءوا من قرية الكوامل، دخل رجلان يرتدى كل منهما الطربوش والقفطان يحملان نعشًا وضعوه فوق ثلاثة مقاعد متجاورة، نفذت إلى أنفى رائحة مبيد، حتى الآن لا أدرى مصدره، من النعش، أم من مكان ما؟. مبيد قوى مما توزعه نساء يرتدين الملابس البيضاء، يجئن مرة فى الشهر، يقمن بالرش لقتل البق والبراغيث والقمل، ويسكبن مطهراً فى المراحيض، يتعصبن بمناديل بيضاء، يرتدين جلابيب من قماش متين، لونها أبيض يميل إلى أصفر، تدس أمى قرشًا فى يد كبراهن حجمًا ونفوذًا كما يبدو، عندئذ تصب بودرة نفاذة الرائحة فى علبة فارغة، كان يطلق عليهن «بتوع الصحة».

منذ تلك اللحظة ارتبط عندى الموت برائحة المبيد الحشرى هذا. هل للرائحة صلة أم الاسم؟، كنت أعرفه باسم البودرة، وفيما بعد المبيد فمن أين يأتى تأثير الاسم، الغريب أن ما وثق العلاقة، نفاذ الرائحة إلى حاسة شمى عند مرورى أمام قامة ملفوفة، لكن لا يبدو منها شيء، مددوها داخل التابوت، أو كما سمعت الوصف فيما بعد ـ الخشبة ـ بسرعة تم وضع الغطاء، وتزاحم الرجال ليرفعوا الخشبة، وهنا علا صوت آمر، قوى.

«وحدوا الله..».

فردد القوم

«لا إله إلا الله..».

يضفى الموت حركة خاصة على الأحياء، يصبح مشيهم مغايراً، تعبيراتهم تختلف. استعدت بصى من النافذة وتعرفى على الموت أول

مرة فيما تلا ذلك وعبر مراحل مختلفة تعدد فيها معنى السفر إلى هناك وتباين، استعدت حركة الرجال، انقضاضهم لحمل النعش، بعد أكثر من نصف قرن، كنت في مسجد سيدى أحمد أبو حريبة بالدرب الأحمر، هذا اسمه كما يعرفه الناس، بناه الأمير قجماس الإسحاقى. كثيراً ما ألج فراغه فلا أجد أحداً انفرد به، بنوافذه التى يغطيها زجاج ملون معشق بالجبس، لى وقفة وفحصة فى موضع آخر، لكننى ذاكر الآن ما وقع فجأة وبدد خلوتى. عندما اندفع عدد من الرجال يحملون نعشًا من خشب غير مغطى بأى قماش، هيئة دخولهم. كل ما عندهم مستنفر، معلن، ظل وجه متطلع إلى نقطة ما، عيون متسعة، مبصرة، محدقة، اتجهوا مباشرة إلى القبلة، أنزلوه أمام المحراب، أمّهم واحد منهم، رفعوا الأيدى أربع مرات، أدوا صلاة الجنازة، تحركات مرتبة، سريعة، سمعت صراخ نساء فى الخارج، لم أصغ إلى أى صرخة عند رؤية والد حسن أفندى، قالت أمى، إنه منع أسرته، لأن الصراخ غير مستحب عند السلف الصالح، فيه احتجاج على قضاء الله!، بعد خروجهم مباشرة وفدت على رائحة المبيد، لا أدرى.. هل تهب من ذاكرتى. أم من الخارج؟ من مصدر ما يلازمنى، لا يبث إلا عند مثول الموت، الموت المصحوب بطقوس التشييع، لم أعرف الرائحة فى ظروف أخرى تعدد فيها الموت أمامى وحولى، منها الحروب التى شهدتها، وحوادث قضى فيها نفر غير قليل.

بعد سنوات انتهى بنا المقام فى شقة صغيرة بالدرب من غرفتين، الأولى ذات نافذة، والثانية تؤدى إلى شرفة، بعد رؤيتى خروج علية ملفوفة فى ملاءات قديمة، فوق نقالة، رجال الشرطة حملوها إلى المشرحة، ما تردد فى اليوم الأول أن الكهرباء صعقتها عندما سقط سلك عار على قوائم السرير الحديدى الذى كانت تتمدد فوقه، لكن ما

سرى بين النساء والرجال أن زوج أمها قتلها بعد أن ظهرت عليها أعراض حمل منه، وأن والدتها متواطئة.

علية أول من لعبت معها خارج البيت، فى العطفة، صحبتنى إلى تحت السلم، رقدت على ظهرها، وقالت: تعال نعمل زى بابا وماما، لم أفض هذا لأى صاحب، احتفظت بهذه الفعلة سراً، ربما بدافع هذه اللحظة، لأنها أول أنثى تنكشف تمامًا وتجيب فضولى كيف تبدو؟ لماذا يجلس إذا تبولن؟ ربما بتأثير ذلك أقدمت على دخول العطفة قبل المغيب مع أن ذلك غير مبرر. ولا أدرى ماذا سأقول لو استفسرت أمى، كنت فى الثالثة عشرة. كانت علية تكبرنى بعام أ واثنين وربما أكثر، انتابنى فضول لرؤية المنزل الذى أقامت فيه أول من رقدت لى، أول من دعتنى، كنت أعرف أ ن الشقة مغلقة، لم يقدم أحد على سكناها بعد معرفة الناس بموتها مصعوقة، مقتولة، لابد أن عفريتها يظهر ليلاً وقد يلحق الأذى بمن يتعرض له، اخترت وقتا على حدود النهار والليل، مشيت متمهلاً دخلت العطفة وعندما اقتربت من نهايتها، حيث يقوم جدار يمنع المرور إلى شارع قصر الشوق، جدار يحد فناء يستخدم الموقف لعربات اليد، وعربات الكارو، ودوابها التى تجرها من حمير وبغال، عندما حاذيت البيت، تطلعت إلى النافذتين، المغلقتين، هذان المنزلان المتجاوران لا شرفات لهما، نوافذ خشبية «شيش»، يليها أخرى زجاجية، وفوق المصراعين مستطيل بعرضهما «يسمى» شراعة، وهذا له مصراعان صغيران، آخران بمفردهما.

باب البيت مستطيل، له هيئة آدمية. كأنه رجل يستند إلى الجدار، متجهم لسبب غامض، تبدل إيقاع خطواتى، المسافة قصيرة، الباب الذى تجاوزته طفلاً بصحبتها بدا أصغر، أضيق، لون الشيش الأخضر

أكلح، عند نهاية الجدار يجب أن أستدير، أثناء عودتى تمهلت أمام النافذة الأولى، أيقنت أن بصراً يرقبنى من خلف فرجات الشيش، إننى فى دائرة نظر قوى، ثقيل التطلع، بدأت قشعريرة تسرى من قمة عنقى إلى ظهرى. ثم تجتاح جسدى كله. هنا كان أمامى أحد أمرين، إما، أن أقف وأستسلم للجذبة السارية من وراء النافذة. لا أدرى إلام أصير؟ ربما تنخسف بى الأرض. أو أهيم لأتبعها حيث توجد، أو يتبدل حضورى، وإما أن أقاوم، أن أركز الطاقة، وأخلع ذاتى ناطقًا اسم الله بصوت مرتفع.

فارقت العطفة جديًا. لاهث الأنفاس. غير عابئ بمن ينظر إلىّ، لم أعد إليها قط حتى الآن، غير أ ن أمراً علق بى، يقين بدأ عندى أن ثمة بصراً يرقبنى من موضع ما، مكان يستعصى، بل يستحيل تحديده، من فوق، من تحت من يمين أو شمال، أحيانًا أنسى، فجأة أتذكر فيتبدل خطوى ويتغير إيقاعى، لم يفارقنى ذلك فى شتى مر احلى، لازمنى أينما حللت، فى المدن القصية، الدانية لحظة مرور جثمان والد حسن أفندى ملفوفًا، تمدده فى الصندوق لحظة رؤيتى أم نبيل، لحظة مرورى بالعطفة أمام نافذة الغرفة التى قيل إن علية ماتت بها.

لحظات من بواعث توجسى إذا استعدتها، ومثار لكوابيس إذا ولجت أحلامى، لكنها ليست بمفردها، ثمة لحظات أخرى تنتظم كعلامات أو بؤر للفزغات وكلها تتصل بنوافذ مررت بها أو تطلعت عبرها.

فى الدرب عفاريت وجان وغيلان، هذه المخلوقات التى لم أرها تمثل عندى أوضح من رجال عرفتهم ونساء ضاجعتهن أستحضرهم بقوة المخيلة من أوصاف سمعتها أو أوجدتها من حيث اللا وجود.

الغيلان أقرب إلى الوحوش، أجساد مكسوة بشعر كثيف، ومشافر حمراء، أنياب بارزة، الإناث منهن أخطر، اختطاف الأطفال، يمصمصن العظام بعد التهام الأجساد الصغيرة، نعرفها بيننا بالمفرد «أمنا الغولة» مكانان أثق أن بكل منهما غولة مقيمة، قصر المسافرخانة، الثانى بيت من أربعة طوابق مجاور لأرض خربة.

الأول يقع داخل الدرب، يضفى عليه خصوصية، تخلو الحوارى والدروب الأخرى من قصور مماثلة. إنه المبنى الأضخم، يمتد بطول الفرع الأيسر للدرب. يمكن رؤية سطحه من غرفتنا عبر نافذتى الأولى، خاصة ملقف الهواء المفتوح باتجاه بحرى بشكله المتميز، تكوينه المثلث، جدران مرتفعة صماء لا تُبدى أى تفاصيل، لا يومئ، لا يوحى، فقط قرب نهاية الجدار مشربية عريضة، بارزة، لا يمكن رؤية الواقف خلفها.

فيما بعد. بعد مرور سنوات عرفت أن المسافرخانة قصر قديم، بناه شهبندر تجار القاهرة محمود محرم، ومثل كل المبانى الكبرى، تئول إلى من لم يبذل فى تأسيسها جهداً خلال أزمنة تالية، بل يُنسى المالك الأول أحيانًا ويعرف البيت بآخر المقيمين به. فى الدرب الأصفر بيت من العصر العثمانى أيضًا، بناه الطبلاوى، كان شيخًا فى الأزهر، لكنه عرف بمن اختتم السكنى به، السحيمى، بعده تحول إلى مزار أثرى، المسافرخانة اسم لم يطلقه على المبنى صاحبه، عرف بذلك منذ عصر محمد على الذى استولى عليه واستخدمه مقراً لضيوف الدولة الكبار، من هنا الاسم، أى. . مكان المسافرين، فى إحدى حجراته ولد الخديو إسماعيل فى ظروف لم أهتم بتدقيقها، عاينت تلك الغرفة التى أقام بها فنان تشكيلى معروف، إذ تم ترميم البناء عام تسعة وستين، وخصص

لإقامة فنانين من ذوى الحيثية، وقد عرفته منذ ذلك الحين. ، ألفته وأمضيت فيه أوقاتًا طوالاً، تدثرت بظلاله وطيب أركانه، وعلق عندى منه كثير، بعد دماره فى حريق غامض رثيته فى تدوين ربما ضمنته دفترا آخر.

فى المسافرخانة، وسائر عمارة فترته، كانت النوافذ تدير ظهرها للشوارع، تطل على الداخل، حديقة البيت وفنائه المتصل بالسماء، فكأنها الروح فى الجسد، لولوج البيت بابان على زاوية قائمة، الأول يواجه الخارج والثانى يليه إلى الداخل بحيث لا يمكن رؤية أهل البيت، النوافذ لم تكن سافرة، إنما محجوبة بشبكات من الخشب المخروط فى تشكيلات تندثر الآن، ترشح الضوء وتفتت مساراته، تسمح للمقيم أن يرى العابر بدون أن يشعر. فى القرن التاسع عشر استدارت النوافذ، تم ذلك على مراحل متقاربة، عندما شيدت المبانى التى تقيم فى كل منها أكثر من أسرة، بيت الحاج حامد، شقيق أحمد، والد سعاد. وتفصيل أمرها بحت به فى الدفتر الثالث، المعنون «رشحات الحمراء» نوافذه وسط بين المشربية بواجهتها العريضة. والخشب الخرط الذى يحجب الواقف خلفها. وبروزها قليلاً، لكنها تطل على الدرب، فى المبانى متعددة الطوابق التى بدأت ظهورها مستهل القرن العشرين اختفى الفناء الداخلى، تحول البيت من الإطلالة على مكنون فراغه إلى مواجهة الخارج، واكتمل ذلك بظهور الشرفات، مع تقارب المسافات أصبحت الحيوات متاحة للناظرين.

مشربية المسافرخانة الوحيدة، المطلة على الدرب، لا تفصح عما يكمن خلفها، أحد مصادر خشيتى، تحذيرات أمى وأبى عند السماح لى باللعب فى الحارة، ألا أقترب من المسافرخانة، أن أحذر أى دعوة

لدخولها. تسكنها الغولة الشرسة. لا تكتفى بذبح الصغار وأكلهم إنما تمصمص عظامهم، بمجرد تجاوزى فرن الحاج ناصيف. عند وصولى إلى مفرق الدرب، خرابة، أى أطلال بيت، سمعت فيما بعد أن الممثل المشهور عبدالوارث عسر ولد وأقام به، لحظة خطوى هنا يبدأ حذرى، أختلس النظر إلى المسافرخانة، عند المرور بالأماكن المخيفة تختلف ردود الأفعال من إغماض عينين إلى اختلاس نظر مع إسراع خطى. أو التحديق الجرىء، غير أننى كنت إلى الحال الثانى أقرب فى الدرب. خاصة أننى أعبر الطريق مكشوفًا لكل متوار، خفى، لكننى أتمثل الثالث عند تطلعى عبر نافذة مع يقينى أننى محتجب، عسر رؤيتى.

إذا كان مصدر فزعى تحذيرات الوالدين وما يرويه الناس عن القصر المهجور، فإننى لا أستطيع تحديد سبب خوفى عند التطلع إلى ذلك البيت المواجه لمدرسة عبد الرحمن كتخدا الابتدائية، أو لمكان أتلقى فيه العلم، وأتعرف بين جدرانه على أشكال الحروف، يطل المبنى بنوافذه المستطيلة على شارع قصر الشوق، فى مواجهة خرابة، يليها مباشرة مبنى من أربعة طوابق، يعلوه برج خشبى للحمام، من أين جاء يقينى أن الطابق الأخير تسكنه غولة شرسة؟ لم يحذرنى أحد، ولم أستمع إلى تفاصيل تشى بذلك أو توحى به، فمن أين جاء هذا التأكيد؟ حتى الآن لا أدرى، لكننى إذا ما خرجت من المدرسة فإننى أختلس النظر إلى النافذة العلوية، أسرع الخطى، إذا وقفت أمام دكان عبدالعاطى بائع الكشرى، رائحة التقلية، غامقة اللون، آخر ما يضعه فوق الأرز والمكرونة والعدس والمرق.

البيت قائم إلى الآن، بعد نصف قرن مازلت أتطلع إليه، لا أدرى من يقيم ومن استقر زمنًا ثم رحل، النافذة مغلقة دائمًا، هل رأيت امرأة منكوشة الشعر تتطلع إلى الطريق؟

ربما، لا أقدر على التحديد، أو استعادتها كما أرى أم نبيل بوجهها المستدير، المنبت عن جسدها، المؤطر بالنافذة، من النوافذ التى كنت أمر تحتها مسرعا، نافذة الشيخ على الجرجاوى المحامى الشرعى، كان نحيلاً، قوامه منحن يرتدى عباءة بنية اللون صيفًا أو شتاء، يخطو وكأنه على وشك السقوط، تحت إبطه حقيبة جلدية عتيقة، لابد أنها تضم أوراق القضايا التى يتعامل معها، مرتين أو ثلاثا توقف للحديث مع أبى. ما يربطهما أنهما ينتميان إلى مديرية واحدة، إلى جرجا، يتحدث اللهجة الصعيدية مثل أبى، أعزب يعيش وحيداً فى شقة من أربع غرف وصالتين، لا يزور ولا يُزار.

فجأة اشتعل حريق أثناء استحمامه، انفجر موقد الكيروسين، النار التهمته تمامًا، يحكى أهالى الحارة عن صفائح وجدوها معبأة بعملة واحدة فقط، نصف فرنك، هكذا كانت تسمى، قطعة من الفضة الخالصة، مسدسة الشكل أدركتها وتعاملت بها، كان على أحد وجهيها صورة الملك فاروق عند توليه، وعلى الآخر كتابة، المملكة المصرية، قرشان صاغ، هذه العملة اختفت بعد ثورة يوليو، عندما أصبح قيمة ما تحتويه من معدن الفضة يتجاوز القرشين صاغ، ثم رأيتها فى محلات خان الخليلى، تباع كعملة تذكارية، بعد أن تضاعفت قيمة المعدن.

لماذا لم يجمع الشيخ على إلا هذه العملة؟

هذا ما لن أعرف جوابه أبدًا، وصف القوم الترتيب والنظام الذى عثروا به على العملات المرصوصة فى الصفائح التى كانت مخصصة لتعبئة السمن البلدى، أكثر من أربعين صفيحة، جاء البوليس، تحررت محاضر، وتم الجرد، ولأنه مقطوع من شجرة، ولا أقارب معروفين له، جاء موظفان من مصلحة الأموال العامة لتحريز ما تبقى، فى هذه

المصلحة قسم يتولى اتخاذ إجراءات بمقتضاها ترث الحكومة من ليس لهم ورثة.

ذهب الشيخ على المحامى الشرعى، لكنه خلف وراءه مصدراً للخوف فى الدرب فمن مات مقتولاً يطلع عفريته على الناس، يظهر فى أشكال مختلفة، إما على صورة صاحبه، لكنه فى لحظة ينقلب إلى هيئة حيوان أو خفاش طائر، الدرب عفاريته معروفة مثل سكانه، أمام فرن الحاج ناصيف يطلع عفريت لقتيل مضى عليه زمن طويل، لا يذكره أحد لكنه يظهر فى صورة ساعى بريد، يرتدى السترة الصفراء الرسمية والطربوش، يتجه بهدوء إلى القادم أو الخارج فى هدوء الليل، يسأل عن الساعة، بعد أن يصغى إلى الإجابة ويشكر، يتجه مبتعداً، غير أن ما يلفت النظر وقع خطاه، يلتفت سيئ الحظ، ولحظة رؤية سيقان الماعز المتصلة بجسد بشرى يذهب عقله، رغم أن الحكاية معروفة، متداولة، فإن أكثر من شخص يقع فى الفخ عند ظهور ساعى البريد، آخرهم عزيز بن محمود اللبان، لابد من مرور وقت بين زمن سقوط القتيل وظهور عفريته، يحدده البعض بأربعين يومًا، ويؤكد آخرون أنه سنة كاملة. العفريت لا يظهر إلا ليلاً. دائما لفرد واحد، يرتبط بمكان معين، يمارس الخداع، كأن يبدو فى صورة عادية ثم ينقلب أو يتحول، من أشهرهم فى الجمالية عفريت درب قرمز، الذى يظهر على مدار اليوم، ليلا ونهاراً، ربما لأن القبو معتم، يمتد تحت مسجد الأمير متقال العتيق، العفاريت رغم مرحها وتدبيرها المقالب إلا أنها ضارة، تلحق الأذى بالبشر بدون أن تقدم على فعل محدد وهنا تتشابه مع الجان، وإذا كان البعض ينكر وجود الأولى، فلا يجرؤ أحد على نفى وجود الجان لأنهم ذكروا فى القرآن الكريم، ولم يحكم عليهم من البشر إلا سيدنا سليمان الذى سخر قواه الخارقة، وعاقب المجرمين

منهم، الجن أمم، بعضها مؤمن، ومنها الكفرة المارقون، وأمرهم يطول الحديث فيه خاصة أن معرفتى بهم زادت تفصيلا بعد بدء قراءاتى لألف ليلة ولية، أستعيد بعض حكاياتها فكأنها من تجاربى المعاينة، المحسوسة قراءاتى الأولى تمتزج بتجاربى، لا أدرى أيهما الحقيقى والمتخيل؟. كنت أحول السطور إلى صورة ومواقف وانفعالات، أحيانًا أبكى جلد كازيمودو، ومرة ألتزم الصمت حزنًا على مصرع دارتنيان النبيل، وأمسك أنفاسى عند خروج المحبوس من القمقم المختوم وتهديده الصياد الفقير. هذا حديث أمره يطول، وليس هذا الدفتر موضع ذكره. لكننى أقول: إن قوة التخيل فاقت ما عرفته من الواقع حتى إن الأمر مستمر معى. أستعيد الملامح، فيبدو من عرفتهم عبر السطور أقوى حضوراً وأوضح ملامح من الذين جالستهم أو عايشتهم أو أصغيت إليهم، يرد علىّ هذا كله بدون ترتيب، أحيانا يبدو الأبعد زمنًا أكثر قربًا مما يليه، الذكريات تختار نفسها، والصور المتبقية ترد إلى وعينا بتدبير منها وتطوعنا لها. هكذا تطل النوافذ الأولى علىّ واضحة، جلية حتى لأرى فى بعض الأحيان مواضع تقشر الطلاء الذى يغطى أخشابها، تمثل عندى أرسخ وأنصع من نوافذ مررت بها أو تطلعت من خلالها بالأمس القريب، ما أستعيده لا يوجد به قريب أو بعيد طبقًا لمتواليات الزمن وتتابع الوقت، لكن كما يبدو لى، كما يمثل عندى، هكذا يصبح النائى دانيًا والقريب على مسافة يستعصى علىّ التحديق عبرها، بل عن الأحلام تتداخل مع الواقع، كذلك ما تخيلته أو توهمته وما أضفيته من عندى على وقائع حقيقية رغبت فى تضخيمها أو تهويلها جذبًا للسامعين، وسعيًا لاستثارة انتباههم، وإلى هذا يمت ما جرى عبر نافذة الاستراحة.

لأسباب يطول شرحها صدر قرار عام خمسة وستين بنقلى من

القاهرة إلى محافظة المنيا، وأن يتم التنفيذ فى أربع وعشرين ساعة، نفى وليس نقلا، بنفس مرتبى الذى لم يتجاوز الجنيهات العشرة ونصف الجنيه، كنت أسلم ثمانية منهم إلى أبى الذى بدأت أموره المالية تتعسر. لقلة راتبه وارتفاع مطرد فى شتى مناحى الحياة، كان الأمر قاسيًا، صعبا علىّ، ليس لضيق مواردى فقط، إنما لأنها المرة الأولى التى أنفصل فيها مرغما عن الأسرة، عند سفرى خرج والدى مودعًا، وظل واقفًا بجوار القطار متطلعًا إلىّ بعينين تفيضان نَصَبًا وشقوة، وعندما فكت الكوابح عن العجلات وتراجع القطار همسة تمهيدًا لانطلاقه، مد يده ولمس كفى، هو الذى لا يعبر عن عواطفه بسهولة.

«روح يا ولدى، يسترها معاك دنيا وآخرة..».

استقبلنى مدير الجمعية التعاونية، وكان رجلاً هادئًا، وسيمًا، من بحرى، مطلع على ما جرى، الأسباب الحقيقية لنقلى القسرى، بعد إبلاغى عن سرقات فى مخازن الصوف ومخالفات حفظ التحقيق، ودارت الدائرة على نفر تصوروا أنهم يحمون المال العام. أبدى الرجل تعاطفا معى، قال إنه رتب لى إقامة مؤقتة فى استراحة الرى.

تقع استراحات الرى على أطراف المدن، فى الخلاء بيوت من خشب إنجليزية المنشأ والطرق، أما أن تكون قريبة من النيل، أو إحدى الترع الرئيسية هنا، المكان قبلى المدينة، وعلى الطرف الآخر من السكة الحديدية، تطل على ترعة الإبراهيمية، بناء وحيد، كل ما يحيطه خلاء، حقول ممتدة، فى ذلك الوقت لم يكن يوجد سواه غرب الترعة، النخيل كثيف، والكلاب الضالة تهاجم المارة مباشرة إن قصدوا، هذا يعنى عودتى مبكرًا فى ضوء النهار، وأن أبقى حتى صباح اليوم التالى، لم أعرف عزلة كتلك المستقرة فى هذا المكان ومما زاد

الوحشة خفير الاستراحة. عبدالمقصود، كان طويلاً، معتمًا، غير مرحب بى وبزميلى المهندس عبدالمسيح الذى جاء لحسن حظى فى الحجرة المجاورة، ولأول مرة أرى مسيحيًا يؤدى الصلاة، يقف ممسكا بكتاب صغير للصلوات ويقرأ بصوت رخيم وبعد أن يفرغ يرسم علامة الصليب فى الفراغ.

وعندما فرغ من صلاته فى حجرتى. ورسم العلامة مرة واحدة، طلبت منه أن يؤدى تماما كما يفعل فى غرفته، كنت أصغى إلى صلواته صامتًا، متأثرًا بخشوعه، حضوره ونسة، خاصة فى مواجهة عبدالمقصود الذى كان يقدم على كل ما يستفزنا ويؤدى بنا إلى الضيق، يبدو أنه كان يستخدم المكان الخالى معظم الوقت بعد بناء استراحة جديدة لمفتشى الرى قرب النيل، مزودة بأجهزة تكييف. الضوء الواهن، الخافت، يثير متاعب لبصرى، لكننى مضطر، اعتدت ألا أنام مبكرًا مثل عبدالمسيح، أقرأ وأرقب القطارات وأمارس الحنين، عبر النافذة أطل، المدينة على الطرف الآخر متضامة، متقاربة، هادئة البث، أتقنت مواعيد القطارات، خاصة السريع منها المتجه إلى بحرى، إلى مصر، استعدت حنين أبى إلى قطار الثامنة صباحًا، الذى اعتاد ركوبه عندما يسافر إلى البلدة، يحفظ أسماء المحطات، مواعيد الوصول إليها.

نافذة الاستراحة مستطيلة، لها ثلاثة مصاريع، الأول من زجاج، والثانى من سلك لا يسمح للناموس بالدخول، والثالث خشبى، اعتدت ترك الأخير مفتوحًا فى الليل، تؤنسنى الأضواء القادمة من المدينة القريبة البعيدة، أحيانًا أقوم لأنظر إلى الخلاء، إلى تدفق المياه فى الترعة، إلى أن حلت الليلة السابعة لإقامتى.

ما هذا؟!

جمدت فى مكانى، حرصت ألا أتحرك، ألا يبدر منى صوت ينم على مكانى، ثلاثة يقتربون من الترعة، قامة أحدهم تشبه عبدالمقصود، تقاربت رءوسهم. كان مستحيلاً أن أصغى إلى همسهم الخفيض جداً، وكان بينهم ما يشبه الجوال، فى اليوم التالى قلت لعبد المسيح إننى سأفضى إليه بسر لابد أن يعدنى بكتمانه. أقسم بالمسيح الحى فأفضيت إليه بما رأيت، غير أننى أضفت وصفًا دقيقًا لما يشبه الجوال، قلت إن الهيئة آدمية، وأنهم حملوه وألقوا به فى الترعة، لم يطفُ، غاص على الفور.

سألنى عما إذا كان أحدهم قد لمحنى.

قلت إن ربنا ستر، لو رفع أحدهم بصره إلى أعلى لرآنى، لكننى لم أتحرك، ولحسن الحظ كان المصباح مطفأ.

طلب منى ألا أتحدث مرة أخرى عما رأيته، خاصة أننى لست واثقا من طبيعة اللفافة الضخمة، الحديث سيجر المتاعب، لو أننى متأكد تماما، يجب أن أبلغ الشرطة.

عندما رويت ما عرفته بعد عام وشهرين لزميل حميم أثناء اعتقالنا، وصفت بدقة قدوم الرجال الثلاثة وهم يسيرون بصعوبة، ثم إحضارهم حجراً ثقيلاً وربطه بالجوال قبل إلقائه فى الإبراهيمية، بعد سنوات دونت ما رأيته فى نصّ نثرى قصير عنوانه «غرق» وإنى لمورد جزءاً مما كتبت وثبت عندى، فيما يلى نصه:

«أطفأت المصباح الشاحب منذ ساعة أو أكثر، أقوم إلى النافذة بعد قليل سيعبر القطار الفاخر، يقوم من القاهرة قبل الغروب. لا يتوقف إلا فى أسيوط، ثم يواصل إلى الأقصر، ركابه أجانب، غرباء عن الديار، لسرعته تتصل أضواء نوافذه فى شريط طويل مارق، يبدد

العتمة والصمت لحظات. يخلف عندى وحشة، أتطلع إلى أصداء المدينة المكتومة عند الضفة الأخرى من الليل، حيوات شتى تمضى، لكنى منفى عنها، ما من صلة.

لكن . . ما هذا؟

همهمات، أمعن مصغيًا، أمسك أنفاسى، أحبس شهيقى ولا أطلق زفيرى. . من؟ يندر المرور هنا بعد الغروب، لم ألمح شخصًا منذ قدومى، من؟ الاستراحة هدفهم؟ هل أمضى إلى زميلى. أنبهه إلى خطر وشيك؟ راح فى النوم منذ وقت غير قصير، لم أتحرك، أنتظر لأرى، أرهف سمعى، أى عبث بالباب الرئيسى يمكننى الإصغاء إليه من هنا؟ أخشى خطوى، سرير الخشب ينم علىّ.

رجل طويل. ملابسه بلدية، عمامته ثقيلة، أدركه فى مجمله، يقف عند الزاوية اليمنى للمبنى، هنا ينتهى الممر الضيق المؤدى إلى النخيل الكثيف، يدير ظهره إلى الترعة، ليس بمفرده، يلوح بيده. . يتراجع خطوات.

أربعة. .

هكذا بدءا فى اللحظات الأولى، اثنان طويلا القامة، آخران قصيران مدكوكا البنية. لا . . إنهم خمسة، الخامس محمول، يمسك به أحدهم من جهة واثنان من الناحية الأخرى، لا أتمكن من الملامح، لكننى أقدر على تحديد الرأس والقدمين والذراعين الموثقين وراء الظهر.

يشير أولهم إلى الترعة، لم أصغ إلى نطق، أدرك أنه يحدد موضعًا، يتوقفون، يتطلع كبيرهم تجاه النافذة.

يرجف نبضى، لا أحيد، لا أغير وضعى، أى تقلقل سيكشف

حضوری، أغمض عینی، أرهب لحظة تتواجه فیها نظراتنا، أکتشف خلالها أنه أدرکنی، یستمر تطلعه صوب النافذة، هل انتابه شکل ما؟ هل شعوری غامض أن ثمة من یراه، یحجبنی عنه الزجاج الذی یعکس الأضواء البعیدة، ومصراعا السلك القدیم الذی منع البعوض.

یشیر بیده. یطمئن من معه، یطلب منهم التقدم.

إذن. . لم یلمحنی

أواصل ثباتی، أی تغیر وضعی ربما یدرك بالحس، یحثهم علی الإسراع، یحاولان رفع القدمین الموثقین، غیر أن غشاء یبدأ، فی مواجهتی ینتفض الجسد الذی ظننته هامداً، أنات مکتومة مصدرها الأنف، الفم مکمم، یمیل أحدهم فینقطع الصوت، یهمد النصف الأسفل إذ یمسك به القصیران، یلفان القدمین بحبل متین، یثبت حجراً نقله من الضفة، یشده، شخص واحد یمسك الرأس، تنتفض الکتفان، یضغطه الرجل الجاثی علی قدمیه، ینفلت الرأس فی حرکة سریعة یمینا ویساراً.

یبدأ عندی دوار، لم أدرك میلی إلا بعد لحظات وعرة، یثقل صدری، یبدأ ثقل مریر، أرقب انتفاضات الجسد المراوغة، تقوسه عند الحفر، یثبتونه من ناحیة فیفلت من الأخری، امرأة أو رجل لم أقدر علی التحدید. .

تتوالی علیّ صور، الطریق الممتد حتی المدینة، میاه الترعة الهادئة، الماضیة بلا توقف، الجسر القریب المقفر الآن، المزدحم نهاراً، مرور القطارات السریع، المارق، مدخل بیت عائلتی، دفء فراشی هناك، وجه یخیل إلیّ أننی أعرفه، تساؤل: هل تطلع علیّ شمس الغد؟ وإدراك بعدم قدرتی.

هكذا يبدو لى المشهد الآن، من خلال ما دونته بعد أربعة وعشرين عامًا، أى منذ ثلاث عشرة سنة على سردى هذا، أستعيد الصور الآن طبقًا لما كتبته، وليس لما رأيته، عاينته، عند طلتى لمحت أمرًا، وسرى داخلى فزعة، الأمر صار ينمو وتتعدد تفاصيله، تداخل ما عاينته، مع تخمينى ورغبتى فى إثارة الاهتمام لمن أقص عليه. وصولا إلى تطابق حالى مع حال الغريق المجهول الذى عاينت ربطه بالحجر، وإلقاءه فى ترعة الإبراهيمية بالخيال، حتى سطرته فى ذلك النص التى أوردت جزءًا منه والمعنون «غرق» وقد فرغت منه عام تسعة وثمانين، ما فصلته عاينته بالمخيلة قبل تدوينه، لا أستعيد ما رأيته عبر تلك النوافذ كما بدا الأمر عليه فى الواقع، لكن. . كما أراه بعد نموه وتوالد تفاصيل شتى، هكذا يمكنى القول أن مالم يحدث يكون أحيانا أشد مثولا مما جرى. بل أقول ما يبدو غريبًا.

تتداخل صور الأحلام عندى مع الصور المعاينة، وينتج عن ذلك أحداث محددة، أمضى بها، وأستعيدها فلا يداخلنى أدنى شك فى وقوعها، وإنى لمورد واقعتين أثارتا خوفى، بل رعبى، كلتاهما مرتبطة بالنوافذ.

حدث أن نزلت مدينة بيروت زمن الحرب الأهلية، بالتحديد عام ثمانين، أى منذ اثنين وعشرين عامًا، فما أبعد وما أقرب.

أقمت فى فندق قال صاحبى إنه مؤمن، يقع فى بيروَت الغربية، مبنى ضخم يقع على ناصية شارع ضيق، فى مواجهة النافذة المحكمة الإغلاق، يقوم مبنى لمكاتب إدارية، هكذا خمنت وتأكدت من نوعية الأثاث، والمواعيد التى يظهر فيها الرجال والنساء، فى الليل كان يظلم تمامًا عدا لافتات إعلانية مضاءة بالنيون، وضوء خافت فى الطابق المواجه لى، يظل مضيئا حتى الصباح.

كان وصولى ليلا ؛ لذلك لم أتعرف على جيرانى المؤقتين إلا فى الصباح الباكر ، حوالى الثامنة أزحت الستارة قليلا بحيث أرى ولا أبدو لأحد ، أول ما لمحته منها لونين متناقضين ، متعارضين ، لكن كلا منهما يؤكد الآخر .

الأصفر لقميصها الذى يكشف ذراعيها بدءا من استدارة الكتفين حتى أطراف أناملها ، ممسك بخصرها ، محيط به ، مبرز لما يليه ، الردفين المكتملين ، يغطيهما بنطلون أسود محكم ، أما شعرها الناعم الطويل فيصل النقيضين ، إذ يلامس المفترق الموحى ، لم أعرف قواما أنوثيا مثله ، تأثيره يتجاوز النافذتين ويتخلل حواسى كافة ، تابعت حركتها طوال أيام إقامتى ، بل فى الصباح الثانى استيقظت مبكرًا وتحقق لى ما تمنيته إذ رأيت لحظة دخولها ، وترتيبها الأوراق ، أما لحظة استنفارى فعند انتقالها من الجلوس إلى وضع الوقوف مع ميل قليل إلى الأمام كانت فارهة ، ولعلى مورد تفاصيل أكثر عندما أخوض فى نوافذ الرغبة ، غير أن اليوم الثالث حمل لى أخبارًا سيئة ، جاء مضيفى ، الناشر اللبنانى ، وأخبرنى أن شخصًا معارضًا لنظام الحكم فى قطره العربى اختفى ، كان نزيلاً فى الفندق ، بالتحديد فى الغرفة المجاورة ، قال إنه يخبرنى لألزم الحيطة ، أى أحذر فتح الباب لأى طارق ليلاً ، وأن أسدل الستائر حتى لا أتيح رؤية ما بداخلها لمن يترصد أو يرقب ، عندما لاحظ قلقى ، بل جزعى ، قال إنها مجرد احتياطات ، البلد فى حرب أهلية . صحيح أن الوضع ظاهره الفوضى ، لكن الأمور محكومة بأعراف خفية ، إنه على صلة بجميع الفرقاء ، وسيعرف الجهة التى اختطفت هذا المعارض خلال ساعات ، بل يمكنه الإحاطة بما جرى له ، لكنه لا يريد أن يدع مجالاً لسوء فهم أو خلط أوراق ، إنه حريص على عودتى سالمًا إلى ديارى ، إننى مسئوليته .

بعد انصرافه أحكمت إغلاق الباب، نقلت مقعدا ثقيلاً، أملت حافته، بحيث لو نجح أحدهم فى معالجة القفل، سيدفع المقعد، يسقط، أستيقظ، تتاح لى عندئذ فرصة للصراخ، لطلب النجدة.

أطفأت الأضواء. أحكمت إسدال الستائر، تتحقق المتعة عبر النافذة والفزع أيضا، يثقل الليل فى مثل هذه الحالات. ويعسر النوم، فى الصباح لا يعرف الإنسان إذا كان أغفى فعلاً أم شبّه له.

حوالى منتصف الليل سرى ضوء خفيف داخل الغرفة التى اتسعت مساحتها وانخفض سقفها بحيث لامس شعر رأسى عند وقوفى فارداً طولى متجها إلى مصدر الضوء، كان منبعثا من مكتبها، عبر فرجة الستارة لمحتها، أصفر وأسود، كيانها كله، بل إننى رصدت حواف سروالها الداخلى عبر البنطلون القاتم رغم شح الضوء وضعفه.

ليس هذا قدومها العادى. كانت مدفوعة، موثقة الأيدى من خلف، ظهر شخص لا أقدر على تحديد ملامحه، يماثلنى طولاً، عندما وصل إلى المكتب، دفعها. فنامت منحنية، نصفها الأصفر فوق سطحه الخالى من الأوراق، وجهها ملتفت ناحيتى، عيناها مفتوحتان إلى أقصى حد، تتطلع صوبى، شفتاها مضمومتان.

مزع الشخص الغامض قميصها فبانت حمالة المشد، وبعد أن مزق البنطلون، لم يعد هناك أصفر أو أسود، شظايا فقط للونين تبددا، تكوينها المرمرى الذى كنت أرى تضاريسه رغم خفوت الضوء، وثقل الليل، وكمون الأخطار، كلما أوغل. أحاط عنقها بأصابعه بعد أن لف شعرها الطويل حول رسغه، وعندما بلغ ذروته همدت، فوجئت بقذف يصاحبه ألم، مازلت أذكره ليسره. واكتماله، وشكة رافقته، حتى إننى لزمت فلم أتحرك، غير معنى باختفائهما. لذة لم أسع إلى

استجلابها، إنما واتتنى بغتة، ومما ضاعف من فرادتها ألم دلنى على البرزخ الذى يلتقى فيه النقيضين، المتعة والوجع، ليست اللذة إلا نقيضا للألم، والآه المنبعثة فى ذروة الاتحاد والخوض المتبادل، تتوحد بآهات الضنى، غير أن مما يحيرنى حتى الآن، وقوع الإثارة وغوصى فى المتعة مع إدراكى أن أصابعه تسد منافذ الحياة من جميع جهاتها، حتى بلغ همود جسدها بديع التكوين سكونى..

لا أستدعى تلك الليالى البيروتية إلا وتسرى عندى رعدة، مصدرها الطلة عبر النافذة، بينما تتداخل العناصر من حاضرة ومستدعاة ونابعة من المجهول اللا متعين غير واثق مما أشهدته، هل كان واقعًا، أم حلمًا، أم أمرًا تخيلته؟

رجفة مماثلة، وشيجة من خوف، وأخرى من حسرة نتاج ما رأيته تلك الليلة، أقف فوق رصيف قطار، الضوء يميل إلى زرقة، لا توجد لافتة تشير إلى اسم محدد، لكنها علامات تدل على براغ، لماذا وكيف جئت إلى هنا؟

لا أدرى، كل نظرة تضىء لى معلومة وتضيف أخرى، هذا نوع خاص من القطارات، يقطع المسافة كلها داخل أنفاق أرضية ممتدة، الأرصفة مزدحمة، جنود يرتدون معاطف ويحملون أمتعتهم فوق ظهورهم، نساء ملابسهن موحدة، البعض يتمدد إلى جوار الجدران، فجأة تظهر، بديعة كما رأيتها أول مرة، قميص الصوف الملون، بنطلون القطيفة الزيتى المضلع، فارهة، غير أن حيرتها بادية، تبحث عنى، رحت أزعق باسمها.

«فاليريا..».

أنتبه فى هذه اللحظة أن الفراغ داخل المحطة لا يسمح بانتقال

الأصوات. الكل يتخاطبون بطريقة ما لا أعرفها، لا أتقنها، من داخل القطار حاولت أن ألفت نظرها، وعندما نجحت فى دفع النافذة إلى أسفل، لمحتنى فى عين الوقت الذى بدأت فيه العربات تتقدم إلى الأمام، لا أدرى كيف اندفعت، عبرت من الرصيف المقابل، تعلقت بحافة النافذة، وجهها كله متجه نحوى، يستغيث، يستنجد، وبكل ما أوتيت من قدرة، رحت أحاول رفعها إلى أعلى، إدخالها قبل مفارقة القطار للرصيف. تلفت حولى مستنجداً بالجالسين، لكنهم يحملقون جميعا صوب نقطة ما، وعندما بدأ القطار يقترب من بداية النفق والدخول فى الضوء الأقل وضوحًا حيل بينى وبينها بعد أن ارتفع الزجاج تلقائيًا، غير أن وجهها ظل عالقًا، متطلعًا، مستنجداً بى، ثم راح يتلاشى مع غموق الضوء وتزايد السرعة.

مجرد استعادتى للنافذة المغلقة، وملامحها المستغيثة العالقة بالفراغ، يوقف مشيى، أو يقعدنى إذا كنت واقفا، أو يخرسنى إذا كنت متحدثًا، غير أن هذا ليس أغرب ولا أعجب مما جرى لى فى السويس زمن الحرب، عام سبعين، اعتدت النوم عند وصولى السويس برفقة زميلى المصور مكرم جاد الكريم، فى أى بيت يتواجد فيه بعض أصحابنا، المدينة مهجورة من أهلها، ضمن كل ما عاينت من صور لخراب ناتج عن الحروب أو الكوارث الكونية، لم أر ما أشهدته فى السويس، فقط عرض المجرى ما يفصل مواقعنا عن العدو، قصف المدفعية الثقيلة من عيون موسى، غارات الطيران المتوالية، بدأ استخدام القنابل الثقيلة زنة الألف والألفى رطل، أسقف بعض العمارات بدت كورق مقوى تجعد أو التوى ملاصق لبعضه بعد اختفاء الجدران وذوبان الأعمدة الخرسانية الرافعة.

عند وصولنا هذه المرة لم نجد صاحبنا عم حسن السودانى، كذلك الكابتن غزالى كلاهما خارج السويس، اقترح علينا صديق حميم أن نقضى ليلتنا فى الطابق تحت الأرض من مبنى المحافظة الخالى، تدار أمورها من مواقع أخرى متفرقة.

كانت الغرفة تحت مستوى الأرض، النافذة قرب السقف محاذية للرصيف، أقيم جدار من طوب أحمر، سميك حتى لا تنفذ شظايا القذائف المتفجرة إلى الداخل، فيما عدا ذلك الغرفة مصمتة، جدران رمادية، باب خشبى له قفل إنجليزى بطل استخدامه، لابد أن يولج فيه مفتاح للخروج أو الدخول منه، مثل هذا النوع من النوافذ المحاذية للأرصفة عرفته لأول مرة فى الدقى، كان الوالد يعمل فى وزارة الزراعة، يصحبنا معه إلى العمل، إلى المتحف الزراعى، بعد انتهاء مواقيت الشغل، نمشى بصحبته فى الشوارع الهادئة، البيوت التى تلامس شرفاتها قمم الأشجار، نسأله عن السبب الذى يحول بيننا والسكنى قريبًا من عمله، كان يجيب بحسم أنه لن يفارق سيدنا الحسين الذى يصلى الفجر حاضراً يوميا فيه، ويلوذ به عند الكوارث، لم أتفهم ذلك إلا بعد مرور السنوات وفواتها، من سرحاتنا معه أذكر تطلعى بفضول إلى تلك المساكن التى تقع تحت مستوى الأرض، ينام الإنسان أو يجلس فيها وتمر الأقدام منتعلة الأحذية والصنادل والشباشب على مقربة من رأسه، يمكن لكل مار أن يختلس البصر فيرى المتاح عبر تلك النوافذ، وضع غريب بالنسبة لمن فتح عينيه على سماء منبسطة، وسطح فسيح، وأفق تلوح منه الأهرام ومآذن مختلف ألوانها، لعلها إحدى المرات النادرة التى نمت فيها تحت مستوى الأرصفة والطرقات، ولو أفردت دفتراً ـ كما آمل ـ لأماكن هجوعى ورقدتى لذكرت عجبًا، أرجو أن يتسع الوقت ويسمح، غير أن هذه الرقدة فى زمن الحرب،

كانت من المرات القليلة التى عرفت فيها مكانًا كهذا، غفوت، كنت مرهقًا فرحت فى السبات العميق، صحوت على قصف عنيف.

لترددى على الجبهة صار عندى دربة ومعرفة، عيارات القذائف، الفروق بين عيارات المدفعية المختلفة، أثقلها أطلق عليها القوم «أبوجاموس»، قذائف عيار مائة وخمسة وسبعين ملليمتراً، تتمركز فى عيون موسى، داخل مواقع حصينة، أتيح لى زيارتها ومعاينتها بعد حرب ثلاثة وسبعين واستيلاء قواتنا عليها، نزلت الموقع، لم أهتم بضخامة المدفع، لكننى اتجهت إلى المزغل الذى كانوا يراقبون منه مدينة السويس.

المدينة واضحة للناظر بدون عدسات مقربة، بيوتها متقاربة، متضامة، ولأننا فى الصباح الباكر بدت غائمة، ملفوفة بضباب متصاعد من القناة والخليج، هكذا كانوا يروننا. .

على البعد ليست المدينة المهجورة تقريبا إلا موقعا على خريطة، أو خطوطا فى صورة استطلاع جوى، لاتبدو التفاصيل، لا خبر عن الحيوات التى تسعى، عم خليل فى مقهى أبورواش، واليونانية العجوز الوحيدة المتبقية لأنها منبتة مقطوعة، لا قريب أو بعيد لها، اختارت المدينة والمدينة اختارتها، أم ضيف الله فى المنطقة الريفية وبناتها الثلاث داخل المخبأ الذى حفرته بيديها.

لا أثر لهذا من المزغل الذى أطلوا منه علينا وسددوا قذائفهم صوبنا.

من ناحيتنا تبدو المواقع المحتلة فى سيناء خالية للناظر غير المدقق، لكن بالمتابعة تلوح آثار بشر آخرين، ينامون، يحلمون، يسعون بحذر

عبر خنادق المواصلات، ويكتبون رسائل ويتلقون مثلها، هذا مما يطول الحديث فيه.

القذائف الثقيلة التى بددت صمت ذلك العصر، من عيار أبوجاموس، رذلة، ثقيلة وتفرغ ما يحيطها من أى هواء وتخترق الحصون الصلبة، كان القصف قريبًا، واستطعت أن أحدد تقريبًا الهدف، أحد مواقع المدفعية، كان تركيز الانفجارات فى اتجاه واحد، أحيانا يبدو القصف عشوائيًا، لا هدف له إلا الإزعاج، والمزيد من التدمير، فى موقع عسكرى خارج المدينة، كنت أتناول إفطارًا رمضانيًا مع ضابط مكتب المخابرات الحربية، صعيدى ومن بلدتنا أيضًا، بداية صلة استمرت إلى ما بعد إحالته إلى التقاعد، كان مديد القامة، فسيح العينين، شجاعًا، من الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة، كان ضابطًا فى سلاح المدفعية، حاصر بسريته قصر عابدين، وحارب فى اليمن، وأمضى سنوات حرب الاستنزاف، حتى أكتوبر فى القطاع الجنوبى من الجبهة، وتقاعد فى ذروة عافيته، واستمر عفيفًا ونزيها، نقى الصدر، مخلصا لما أتقنه وتربى عليه، فى واقع مغاير تماما.

عند جلوسنا إلى مائدة الإفطار دوى انفجار قريب، يعنى سماع الانفجار أنه لم يلحقنا، الإصغاء يعنى النجاة من هذا الانفجار، الانفجار يعنى أنه فى الماضى، الخطورة من اللاحق، بخبرته استطاع تحديد النوعية والاتجاه.

«طلقة دبابة..».

قام إلى الهاتف، كان الموقع من الخرسانة المتينة، تحت مستوى الأرض، لا نوافذ ولكن فتحة تهوية مموهة جيدًا، حتى إننى لم ألحظها إلا بعد عدة زيارات، أجرى اتصالات عبر الهاتف، عاد ليقول:

«طلقة إزعاج . . » .

الإزعاج وقت الإفطار، رغم الفتوى التى تبيح الإفطار فى الجبهة، لكن كثيرين تمسكوا بالشعائر، على الجانب الآخر يعرفون ذلك . من هنا تسديد تلك الطلقة بعد آذان المغرب مباشرة، من الممكن أن تكون الطلقة ممهدة لأخريات، ثمة ما يعرف بطلقة التصحيح، تحديد أكثر دقة للهدف، غير أن خبرة صاحبى كانت عميقة، بعد أن فرغ من الاتصالات، واطمئن إلى عدم وجود إصابات، عاد إلى المائدة وراح يتناول الطعام على مهل فبث الطمأنينة وأرساها عندى .

فى الغرفة الرمادية التى زادها العصر والساتر الحجرى قتامة، فوجئت بانفرادى، مكرم لا يتمدد فوق السرير المقابل، إننى بمفردى تمامًا، والباب مغلق أما المفتاح الذى لا يمكن تحريك قفل الباب بدونه، أخذه مكرم، عند وقوع الغارات وبدء القصف يلجأ الإنسان إلى الأرض، يحتمى بها، إما أن ينبطح أو يرقد فى حفرة أو يأوى إلى خندق، الغرفة حصينة صحيح، لكن الباب المغلق قسرًا، والنافذة المسدودة من الخارج بحاجز سميك أهلعانى .

فرق أن يلجأ المرء إلى باطن الأرض للاحتماء بمبادرة منه مع معرفته بإمكانية متاحة للعودة إلى سطحها، وبين إرغامه على البقاء فى حيز محدود وقت وقوع الخطر، مهما كان الحيز آمنًا فلابد من حلول رجفة وتعاظم الخشية .

هذا عرفته من قبل، فى الحبس الانفرادى، زنزانة مزدوجة الباب، الخارجى من قضبان، والداخلى من خشب سميك، تتضاءل النافذة فيه وبالنسبة لى إلى مجرد فتحة فى حجم القرش، المفروض أنها مزودة بغطاء متحرك من الخارج يتيح للسجان الرؤية فى أى وقت يشاء، ولا

يمكن السجين من النظر إلى الخارج، لسبب أجهله، ولحسن حظى كان الغطاء منزوعًا، هكذا أصبحت الدائرة الصغيرة نافذتى على الفراغ الخارجى، تمكننى من رؤية الزنزانة المواجهة ومساحة من الممر المكشوف، من تحديد ملامح أى إنسان إذا مشى متمهلاً، صحيح أن ما أشهده جزء من السجن أيضا، لكن الفتحة تتيح لى تجاوز الفراغ المحدد المؤطر بأربعة جدران مرتفعة صماء، عدا نافذة قرب السقف، عليها قضبان وشبكة معدنية، يستحيل الوصول إليها، كثيرا ما كنت أتطلع منها إلى لا شىء أنقل بصرى من العين اليمنى إلى اليسرى، لا شىء، لا حركة لا استدعاء إلى التحقيق، لا كبسة تفتيش مباغتة هدفها التكدير أو زلزلة الأعصاب، أشد الأوقات وحدة عند الأصائل، عندما يهن الضوء وتميع اللحظات بين النهار والليل.

عند توزيع الوجبات أسارع بالنظر، ثمة حركة، كما أن الباب المواجه يفتح، ، يتيح لى ذلك رؤية صاحبى وزميلى فى الحبس، كان يُنادى برقم زنزانته، مثلى، كنت سبعة وثلاثين، وبعد التحقيق معى، نقلت إلى أخرى، تغير اسمى إلى أربعة وثلاثين.

من؟

شقيقى الأصغر؟

هو؟

أمعنت، ظهره، قامتى، كان يحمل طاولة فوقها أطباق الطعام، محمد المخبر حارس يرتدى ملابس مدنية، المعتقل تابع للمباحث العامة مباشرة، لا علاقة لمصلحة السجون به، المعتقل خاص بالتحقيق، استنطاق المحابيس بوسائط يطول الحديث عنها وليس هنا

محل لتفصيلها، أحد وسائل الضغط. إحضار أقارب المعتقل وتعذيبهم أو اغتصابهم أمامه.

التصقت بالباب، نفر نبضى فسرى عبر الخشب الأصم إلى مسمعى، تاقت عينى إلى تجاوز الفتحة، التحديق، التركيز، عندما انتقلا إلى الزنزانة المجاورة خرجا عن حدودى، ما بين اختفائهما وظهورهما أمام محبسى، فتح الباب، محمد المخبر، يمد الطبق، يتطلع إلى الفتى من ورائه، صفرة غالبة عليه، مثقل بالتساؤلات، من؟ ما الاسم؟ لماذا هنا؟ ماذا فعلوا به وماذا سيفعلون؟

أسئلة منى إليه، ومنه إلىّ.

يتخاطب من هم فى وضعنا بالصمت، غير مسموح للمعتقلين فى الحبس الانفرادى بتبادل كلمة واحدة إذا ما التقى بعضهم صدفة فى دورة المياه أو إذا جرى خلل فى الترتيب.

ويرتدى نفس القميص الأزرق الذى لمحته من الفتحة الدائرية، بنطلونه رمادى، هو بعينه، من ظننته أخى، قوامه مماثل، غير أن ملامحه مغايرة، من هو؟ ما سبب وجوده؟

بعد إغلاق الباب نزلت إلى الأرض متهاويًا، مغمضًا عينى، متوقفًا عن أى نظر، وكنت ألهث كأنى فرغت من جرى أجبرت عليه، دُفعت إليه، وهذا أوعر ما عرفته، أشد علىّ من عصب عينى ودفعى إلى إسراع الخطى لأصطدم بجدار أو أتعثر بدرج بينما العصىّ تنهال على جسدى العارى تمامًا.

من كافة النوافذ التى عرفتها، أحرص على تجنب استعادة تلك الدائرة الصغيرة، كذلك ظهور السنى بعمامته وعطوره فى الشرفة

الخشبية، قضبانها مزخرفة، يرتدى جلبابا أبيض، شاهق البياض، ويلف طربوشه الأحمر بشال أخضر غامق، كان يقف ممسكا بزجاجات صغيرة فارغة يتناولها من جوال يستقر فى الركن، ظهوره، طول وقوفه، تطلعه الثابت إلى ما يحمله فوق كفيه يبث عندى خشية لا يماثلها إلا ذعرى المركز عند تطلعى من تلك الفتحة وتوهمى رؤية شقيقى، ماذا يربط بينهما؟

لا أدرى.. لكننى بقدر الإمكان، أحاول تجنب استعادتهما إذا خطرا لى معًا، ولو عبرت إحداهما بى أتوارى بإغماض عينىّ.



نوافذ الرغبة

ما جرى بين فادية وفتحى الكهربائى أدركته على مراحل، من تركيز أمى واهتمامها البادى، ثم حديثها إلى أبى ثم خلال استعادتى للنافذتين بالذاكرة عبر مراحل تمامى واكتمالى إذا لا تنقطع الصلة بما نشهده عبر نافذة معينة، بل إن ما نعاينه لحظة وقوعه قد لا ندركه فى حينه، إنما عبر استعادته بالذاكرة، مع وروده على الخاطر نتيجة التداعى، أو استثارة معينة، أمور لا حصر لها لم أدركها إلا بعد فوات أوانها، ولم أكتشف جوهرها ومبناها كذلك معناها إلا بعد انقضائها، الاستعادة مستمرة، وفى كل مرة نقف على مالم نعرفه المرات السابقة، وكما ندرك أشياء، نسقط أمورا تغيب عنا تمامًا.

النافذة فرصة للمعرفة، للإلمام، طاقة تطلعنا على ما نجهله، تنهى عزلتنا ومحدودية المكان الذى يؤطرنا حتى لو كانت مثل فتحة الزنزانة الضيقة التى تعبر بالبصر من فراغ الحبس إلى فراغ الحبس، لكن يكفى التطلع عندما يعز الرحيل إلا بالمخيلة.

فادية وفتحى يتواجهان فى الدرب، لكن صفية وجنيدى لم يكن يفصلهما شىء فوق سطح بيت أم نبيل، داخل العطفة، عند الأصيل تظهر صفية، تمثل عندى الآن بيضاء، مرتدية لثوب أصفر سادة، شعرها أصفر، قالت أمى مرة للست روحية إنه طبيعى، لا تستخدم الأكسجين الذى يحول الأسود أو البنى إلى أصفر، إلى لون مفتعل، لكن صفية مولودة هكذا، عندما رأيتها عن قرب بدا تكوينها

مزعجا، رأسها متصل مباشرة بكتفيها، رقبة قصيرة لا تلحظ، نظرت إليها متأنيا عند لعبى فى الحارة، أثناء عبورها إلى الخارج لشراء حاجة ما، لم ترتد «ملاءة لف»، إنما فستان قصير الأكمام، يبرز تقاسيمها، فوق السطح لم أرها إلا بهذا الجلباب الخفيف. أصفر دائما حتى إن ارتدت غيره، ما بقى عندى بعد حوالى نصف قرن أو أكثر حركتها عصرا. سقى الدجاج الذى كان له أقفاص فى الركن الذى لا يمكننى النظر إليه. كنس السطح عندما لا يكون غسيل منشورا، جنيدى كان يظهر أيام الغسيل.

فوق السطح حبال ممدودة بين عامودين من خشب، ثمة قائمان آخران، يصلهما سلك نحيل، يتدلى إلى شقة أم نبيل، يوجد مثلهما فوق سطحنا، إنهما هوائى المذياع، لم يكن فى الدرب كله إلا ثلاثة. واحد عند روحية التى تسكن تحتنا، وأحمد عمر التاجر من طهطا الذى يسكن الطابق الأول، والثالث عند أم نبيل، الأقرب إلينا عند الست روحية، كنت أقعد فوق البسطة وأصغى إلى نشرة الأخبار التى تعنى مقدمتها الموسيقية أن أبى على وشك الوصول، أما أغانى عبدالوهاب وأم كلثوم وليلى مراد فحددت ملامح النهارات ومذاقاتها حتى أيامى هذه. عندما أتيح لى رؤية المذياع لأول مرة وكان ذلك زمن الغارات الجوية، حرب ثمانية وأربعين، تطلعت إليه مأخوذا، ظننت المتحدث مخلوقا قصير القامة يقبع داخله، يرانا من خلال الواجهة المضيئة، ولا يمكننا مشاهدته. كانت الست روحية إذا تخاصمت مع أمى، أو مع أم أحمد التى تسكن تحتها، تخفض صوت المذياع، خاصة فى ليالى أم كلثوم الشهرية، والتى كان البعض فى الدرب يستعد لها بالحشيش، وإضاءة المصابيح، غازية أو كهربائية بغطاء ورقى أحمر، ظهور إضاءة حمراء فى إحدى النوافذ يعنى أن الجو يتهيأ للرغبة، للمتعة، لكن قلة

أقـدمـوا على ذلك، كـان التبـاهى والمفـاخـرة بالجنس أمـر مـقـبـول فى الدرب، بالنوافـذ ذات الضـوء الأحـمـر أو دلق ميـاه الاسـتـحـمـام فى الصباح الباكر أمام البيوت.

أول قبلة فى حياتى رأيتها ولم أتبادلها، عبر النافذة ظهرت صفية فـوق السطح، طلت على الدجـاج، ثم حـملت السلة المصنوعـة من الغاب بيد وراحت تجمع الغسيل المنشور بيد، تمسك المشبك، أو تضعه بين شفتيها قبل أن تفك الآخر، يميل قوامها قليلا لأن السلة مسندة إلى جانبها الأيسر، عندما أولت ظهرها لسطح بيت أم علية عبر جنيدى الحاجز إليها، البيتان متشابهان، النوافذ متساوية فى أحجامها، فى تجاورها، فى هيئتها، السطح مساحة متصلة يقسمها هذا السور الذى يوازى قامة طفل يماثلنى فى العمر وقتئذ، صفية تتمهل بين ملاءتى سرير، تقرب إحداهما من أنفها، من وجنتها، تفردهما على حبلين متجاورين بحيث يكون بينهما فراغ يسترهما عن أى شخص يطلع فجأة عن أى عيون متلصصة عبر البيوت والفراغ.

منزلنا الأعلى فى الدرب، من نافذتنا يمكن رؤية الأسطح الممتدة، عشش الفراخ، الغرف المبنية من الخشب المغطى بالجبس، اسمها غريب فى مسمعى وقتئذ، البغدادلى، صناديق فارغة، عـجلات مهملة، آلات غامضة، تروس، دائما السطح للبقايا.

أتطلع، أرقب.

جنيدى يدور حول الملاءة، يدخل بينهما، يفاجئ صفية من وراء.

آهة.. تصلنى.

فيها خضة مفتعلة، عتاب، دعوة مشوبة بممانعة، التفاتة الرأس

الملواعـة، آه أنشـوية تتـردد عندى حـتى الآن، بقـيت ولا تزال تعـمل اللازم، أكاد أصغى إليها فتستفزنى وتؤججنى بعد نصف قرن، مع أن من أطلقتها ربما اتحدت بالعدم.

يحكم ذراعيـه حولهـا، يريد إبقـاء وضعـهـمـا هكذا، بل إنه يسند دماغه إلى كتفها، حـال رأيت شبيها لهـا فى إعلانات الأفلام فيـما بعد، لا أشهـد ذكراً يحتضن أنثى من خلف إلا وأستدعى صفية، غير أنها تفضل المواجهة، تستـدير إليه، تلتحم شفاههـمـا، تقبيل شره متبادل بحيث لا يمكننى عند استـعـادته القـول إنه كـان يقبلهـا، لا . . الاثنان مقبلان على بعضهما.

«بنت عينها بجسة . . ».

حتى الآن لا أعرف بالضبط ما تعنيه كلمة بجسة أو بجاسة، بشكل ما تعبر عن الجرأة المقتحمة، غير المستحبة، هكذا وصفتها أمى فى حوارها الليلى مع أبى، يظنان أننى نائم، لا أتقلب، لا أصدر صوتا، ويغمغم قلبى فرحان بتلك اللمة الليلية، هذا الخلوة.

قالت أمى: إن الفاجر ينام معها فوق السطح.

قال أبى: إنه فُجر بنات مصر . .

قالت أمى: لكنها بنت بنوت . .

أصغيت إلى لفظ قريب من الفرشاة، أتبعه بقوله مستعيذا بالله من فجر أولاد مصر وبنات مصر .

رغم أننى لم ألتق بصفية وجها لوجه، ولم تعلق بذاكرة شمى، إلا أن أمورا كثيرة بقيت منها عندى لا يمكننى ذكرها دفعة واحدة لتناثرها

وتباثثها وخفائها عنى زمنا طويلا واختلاط الأمر على أحيانا فلا أدرى إن كنت مسترجعا لحظات ولت أم تمثل صفية عندى عبر نافذة لم تعد موجودة فى زمن مغاير، ما رأيته لم أبح به لأمى، لم أخبرها به، كما أننى حرصت على التوارى عند النظر، أوارب مصراعى النافذة، أراهما ولا يمكن لأحدهما أن يلمحنى، أى أننى كنت أعى استثنائية ما أشهده، ما تابعته أمى بدقة وأفضت به لأبى، متى؟ لا أعرف كيف أطلت وتابعت.

فى عام خمسة وخمسين قرر صاحب البيت الشيخ حسين أن يبنى ثلاث غرف خشب بغدادلى فوق مساحة السطح الخالية، لم يستطع والدى منعه، البيت ليس ملكا له.

المشكلة أن استقلالنا بالسطح انتهى، كان أبى قد فرض أمرا واقعا عندما منع السكان بالأدوار السفلى من الصعود لنشر الغسيل أو لتنفيض المفروشات، أو لشم الهواء فى الصيف والجلوس فى شمس الشتاء، كل طابق له شرفتان فسيحتان ثم إنه رجل صعيدى لا يقبل أن يجرح أحد بيته، لا بالنظر ولا بالكلام، البيت فى منطوقه يعنى زوجته، أمى.

وقع الفأس فى الرأس. تحقق ما حرص على تجنبه طوال إقامته فى مصر، أن يسكن شرك، أى دورة مياه واحدة للأسر الأربع، بدأ يبحث عن سكن بديل، ولم يكن ذلك سهلا ميسورا بالنسبة لراتبه الضئيل، الشقق موجودة، لافتات «للإيجار» ترتفع فوق واجهات عديدة، لكن الإمكانية ضئيلة، جرت الأمور بسرعة، راحت مساحة السطح، اختفى الأفق الشمالى والشرقى بالنسبة لى، وزاد الأمر تعقيدا أن الساكن الأول كان مفردا، اسمه عبدالهادى، يعمل محصلا بشركة

الترام، قال إنه متزوج، امرأته فى قرية قريبة من مدينة أبو كبير، محافظة الشرقية، عندما مر أسبوع ولم يبد أى أثر لامراته، انتظره أبى ليلا وصارحه بشكه فى زواجه المزعوم هذا، عندئذ سارع عبدالهادى إلى داخل الحجرة وعاد بعقد الزواج، ومصحف فتحه على سورة يس كما قال، وضعه على عينيه بما يعنى أنه لو كان كذابا فليلحقه العمى، ذلك جزاء من يحلف على المصحف كذبا، بعد أربعة أيام وصل قبل المغيب بصحبة زوجته نوال، إذا ذكرت السواد فبعد الليل يجىء ثوبها الفضفاض وطرحتها الخفيفة المحيطة بشعرها السلسبيل، الناعم والسواد يستدعى نقيضه، البياض، كان مشربا بحمرة، أما ملامحها فكأن عاشقا سواها، أنفها المنمنم، وعيناها الفسيحتان، وشفتاها المحرضتان، وعنقها المطوال، أما قامتها فلم أعرف امتلاء فى نحافة كما رأيته منها، صار لها المرجعية عندى بعد الحمراء التى أفردت لرشحتها دفترا، تنبعث فيه بعض توابعها وليس كلهن، فنوال هذه تمتّ إليها بالقطع، لكن ما رأيته منها غطى وطغى، ولن أفصله هنا فهذا شأن له دفتر تدوين ربما أبقيته سرا لتعذر إخراج ما حفظته فيه على الناس.

أقبلت أمى على جارتها الشابة الجميلة، فقدمت ما تقدر عليه من صابون، وشاى وسكر، استفسرت منها عن الغطاء. هل يكفى؟ عرضت أمى ما نفتقر إليه، لكنها الرغبة الحميمة فى إحاطة الغريبة بكل ما ينفى عنها الوحشة والابتعاد عن الأهل، أليست أمى غريبة مثلها والغريب للغريب نسيب، بل حبيب.

كنت لا أكف عن اختلاس النظر لنوال متوقفا عن الشهيق والزفير، متمنيا أن تطيل أمى الحديث، ألا يصيح شقيقى إسماعيل النائم فى الداخل، أو شقيقتى التى لا تزال رضيعة.

عندما تطبخ أمى تغرف الملوخية فى طبق، تطلب منى أن أحمله إلى نوال، بعد أن تتناوله منى تنحنى لتقبلنى وتطبطب على ظهرى فيسرى عندى محلول السكر، أرضى وأثق وأتطلع إلى الأرض خجلان متمنيا أن أتوارى عنها، أن أراها ولا ترانى حتى أتمكن وأجوس خلال مرمرها.

عندما تفتح استجابة لطرقى أو ندائى.

« يا ست نوال ».

تبدو فى قميص النوم، قماش التافتاه الخفيف، كان مذهلا بقصره، فوق ركبتيها، معلقا إلى كتفيها الملساوين بحمالتين نحيفتين وهذا يتيح عند انحنائها رؤية الدثار كله، بانشطارهما واكتمالهما ونفارهما المتجاور.

لكم استدعيتهما بعد اكتمال أمرى فأستعين عبر استرجاعهما فى فقد الإلف، أو شد أزرى ونفى وهنى، ما أرقته من مائى على العدم أكثر مما صببته فى المحسوس الموجود، ذلك ما كان منى!

غير أن جذبتى إليها عرفت فرادة لم تمر بى من قبل أو بعد.

حدث عند خروجى من باب الحجرة قاصدا النزول للعب فى الحارة، أن لمحتها عبر بابها الموارب، أشارت إلى بدون نداء، مضيت، بمجرد عبورى العتبة أغلقت الباب، جثت على ركبتيها، أحاطتنى بذراعيها، فعرفت غزارة ونقاوة عبير الأنثى.

« أنت شاطر، تعمل اللى أقول لك عليه. . ».

أومأت.

«إوعى تقول لنينة. . ».

أومأت، أومأت، ليست هذه لعبة «صبيان وبنات» إنما أمر آخر لا يتضح كنهه تماما، أتت بطبق صغير، فيه حلاوة معقودة من سكر وليمون، رأيتها لحظة إعدادها قبل أن تخلو أمي بنفسها عند نومنا. أصغى إلى النزعات السريعة، الخافتة، المصاحبة لاقتلاع جذور الشعر.

طلعت نوال فوق السرير، وضعت الطبق بجوارها، تناولت قطعة، رفعت ثوبها وباعدت بين ضفتيها، طلبت منى أن أقعد بينهما فى مواجهة السر المزدهر، المكتمل، الوردى، أروع نوافذ الوجود، علمتنى كيفية انتزاع الشعر الكثيف، المندى، المحيط، كنت أقتلع وفى نفس الوقت أزرع أنفاسى، ونظراتى وفضولى ولبنات من حضورى ولكم تمنيت فيما تلا ذلك الأوان سقى وردة تلك النافذة والإطلالة منها على المدى.

لم يطق أبى الوضع، بعد وصول نوال بحوالى شهر جاء بعربة يجرها حمار، وضع فوقها السرير والكنبة وموقد الكيروسين وسلال فيها ملابسنا وصندوق ورق مقوى فيه علب وأوان زجاجية للملح والفلفل وما شابه، وصفيحة سمن ترسله جدتى من جهينة ومن بعدها خالى، وثلاثة أرغفة، خرجنا من درب إلى درب.

عند وصولنا إلى الدرب الأصفر، أصبح وجود صفية وكاميليا وعزة ومحاسن ونوال والسنى وشعراوى وحسن أفندى ومشهد التابوت الفارغ وعُرى علية تحت السلم، هذا كله صار إلى المخيلة، تماما مثل جهينة التى نزورها كل صيف، تنأى عنى بمغادرتها لكنها تبقى فى وجود آخر يتم بالاستدعاء، أو توارد الخاطرة تلو الأخرى، أو تلبية لمستثيرات الحواس، أحيانا أرى الجزء فألم بالكل وأوقات أخرى أرى الكل فيوثق صلتى بالجزء.

لم يعد حضور نوال ملموسا، مؤطرا بأربعة جدران، ورائحة ناعمة، جاذبة، تنبعث من جسدها اللدن، من مكامنه التى دنوت منها لأنزع شعيرات متناثرة أصرت على نفيها حرصا على سلامة الملمس ونعومة الحضور. أراها بعد انتقالنا فى الفراغ العالق حولى، أول ما وقع عليها بصرى، سارية، مشهرة، معلنة على الناس قوامها المنسدل عليها جلباب أسود لا خصر له، وشعرها البادى من الطرحة، أما خبيئتها الوردية فكنت ألمحها حينا منعزلة عما يتصل بها، بتلافيفها وأوراقها وغوامضها، وحينا آخر ألمحها بينما أبى يتحدث أو أثناء جلوسنا بساحة فندق الكلوب المصرى، فأحمد الله على إحاطة ذهنى الخفى بسياج يستعصى اختراقه حتى على الأقربين ولكم سئلت فيما تلا ذلك.

«بتفكر فى إيه؟».

فأصرح بالمغاير، أو أقول

«لاشىء..».

فى ليلتنا الأولى بالدرب الأصفر عكمنى حزن لبعدى عن نوال، كنت أتهيأ لذهابى إليها خفية مرة أخرى ولكن عزالنا جرى قبل أن يتم ذلك، بكت عندما ودعتنا، قرصتنى خفية، رحت أدبر حيلا عديدة لزيارتها نهارا فيما تلا ذلك من أيام، تخيلت أنها تمر بمحنة ما، أمضى إليها مقدما أغلى ما أمتلكه، حياتى فداء لها، كنت أعيش ما أقرأه من روايات الفرسان، والنبلاء المترجمة فى سلسلة روايات عالمية والتى بدأت أعرف طريقى إليها وقتئذ، غير أن تدبيرى لم يتم، ولم يقع بصرى على نوال مرة أخرى، ولا أدرى مستقرها حتى الآن، رأيت زوجها فى الكلوب المصرى جالسا إلى أبى، يرجوه أن يسعى من خلال

معارفه الذين يصلى معهم الفجر فى مسجد مولانا الحسين لإلحاقه بعمل بعد أن فصلوه .

لا أدرى ماذا فعل أبى ، لكن بعد أربعة أو خمسة أعوام رأيته يجلس عند مبنى البوستة بميدان العتبة ، أمامه منضدة صغيرة وأوراق ، يكتب الشكاوى والخطابات بالأجر ، كاتب عمومى ، لم أفكر فى مصافحته أو الحديث إليه ، عبرته ولم أره مرة أخرى .

لم أعرف من سكن غرفتنا؟ سمعت فى أحاديث أبى وأمى الليلية عن مشاجرات تجرى ، بعضهم يذهب وآخرون يجيئون ، ناس شلق لم يعرفهم الدرب من قبل ، كان أبى يؤكد أنه انتقل فى التوقيت المناسب ، غير أن إيجار الشقة الجديدة كان مرتفعا بالنسبة له ، خمسة جنيهات ونصف ، أى نصف المرتب تقريبا ، لم يكن ثمة بديل أو مفر ، هكذا ردد قبل تصاعد الأزمات .

قبل ذكرى السبب القوى لابتعادى وانشغالى عن نوال ، أومئ إلى ما تركه عندى ذلك الانتقال .

لأول مرة أفارق دربا أقمنا فيه سنوات ، أول صورة فى ذاكرتى لا تنتمى إلى المكان الذى ولدت فيه ، جهينة جنوب مصر ، لكن إلى أفق القاهرة الليلى زمن حرب فلسطين .

فى درب الطبلاوى أقمنا فى غرفة واحدة ، دورة المياه تقع خارجها ، منفصلة عنها ، أما السكن الجديد فشقة من حجرتين وصالة ، حجرة لها نافذة والأخرى تتصل بها شرفة ، هكذا عرفت الفرق بين الاثنتين ، الشرفة كاشفة للمرء ، يراه الآخرون كما يراهم ، النافذة يمكن الوقوف خلف مصراعيها ، أشاهد بدون أن يرصدنى أحد ، ولا يرى ما أقوم به .

لذلك لم أتوقف عند الشرفات إلا فيما ندر خلال هذا التدوين، فالنافذة تعنى خلوتى وانفرادى وتمكنى من آخرين ومواقع بدون أن يرقبنى أحد أو يلم بى ثابت أو عابر.

الدرب مغاير

الأول لم يكن نافذا، أى لا يؤدى إلى درب آخر أو زقاق أو حارة، لذلك خلا تقريبا من الغرباء، من اعتدت رؤيتهم عبر النافذة لا يتبدلون إلا فى حدود ضيقة مثل دخول شحاذ لم نعتده، أو عند قدوم أحباب الحسين للإقامة فى الدرب أثناء المولد، حتى هؤلاء معروفون للسكان، ويفترش كل منهم المكان عينه، رصدت ذلك مع تكرار السنين، حتى الباعة لهم ترتيب، بدءا من اللبان فى الصباح الباكر وانتهاء بعم مصطفى بائع الذرة المشوى والذى يقود جملا ضخما يبرك فى الدرب وعلى ظهره جوالان كبيران تفوح منهما رائحة الكيزان.

الدرب الأصفر مختلف لأنه نافذ، يصل بين شارعين عريضين. متوازيين، المعز لدين الله من جهة الغرب، والجمالية من الشرق، بيتنا حديث، يحتل الناحية المطلة على خانقاه ومسجد وزاوية بيبرس الجاشنكير، قبة هائلة التكوين، اعتدت رؤيتها من زوايا مختلفة حتى الآن، تجاورها مئذنة من طراز المبخرة، أيوبية الأصل وإن كان مشيدهما أمير مملوكى، هو أيضا من بنى الجزء المتهدم من مئذنتى الحاكم بأمر الله وإن جاء مغايرا للأصل الذى يحاكى منارة الإسكندرية، أتم أيضا ما خرب الزلزال المدمر من مئذنة ابن طولون.

على الناصية المقابلة سبيل، خلفه بيت يشبه ما انتقلنا إليه، ربما شيدا فى زمن متقارب، إلى الشرفة المقابلة أدين بالفضل، إذ ظهرت بها فرنسا، بنية اسمها غريب، سمراء، شفتاها ممتلئتان، قعدت فى البيت

بعد إتمامها المرحلة الابتدائية، زوج أمها لم يسمح بإتمامها التعليم، لكن القعدة طالت ولم يأت ابن الحلال، لا أعرف الأسباب، لكن القلق بدأ عند أمها، زوجها صاحب دكان فطير فى درب الرشيدى القريب من سكة الضبابية حيث سينما الفتح الصيفى، تخصص فى نوع من الفطير صغير الحجم، محشو بالمهلبية، الفطيرة بقرش صاغ مذاقها ما زال فى فمى، إذا ما ذكرته تظهر أمامى على الفور فرنسا، هذا اسمها: فرنسا، لم أعرفه حتى الآن فى أخرى غيرها، مصرية أو أجنبية!

أمها تبادلت التحية مع أمى، تزاورنا مرة أو مرتين، أرى شقتهم من الداخل كانت مستورة أكثر، لديهم غرفة للضيوف، بعد انتقالنا اشترى والدى بالأجل كنبة بلدى مستطيلة من الحاج فؤاد تاجر الموبيليا المستعملة، والذى جاء يوما يضرب كفا بكف متعجبا من أحوال الناس، أجاب على استفسار أبى بأنه فاتح عبده المزملاتى فى حمام السلطان بشارع المعز فى خطبة ابنته لابنه، له بنية مليحة تذهب إلى المدرسة، رأى فيها العروس الصالحة لابنه الذى تخرج فى مدرسة الصنائع والتحق بسلاح الطيران فنيا، فوجئ بالأب يزعق فى وجهه.

«ما لقيتش غير بنتى تخطبها لابنك، دى مش وش عمار . . ».

ذهل الحاج فؤاد، كيف يتكلم الأب عن ابنته هكذا . .

«بتضربنى يا حاج . . بتتفق مع أمها على ويربطونى بالحبل وهات يا ضرب . . ».

تمصمص أمى بشفتيها.

«يا ما اللى يعيش يشوف . . ».

قالت لأبى ليلا إنها فكرت فى فرنسا لابن الحاج فؤاد، البنت حلوة وست بيت وعايزة تتستر، قاطعها أبى:

«لا تمشى فى جنازة ولا تسعى فى جوازة».

لم أنس تشهير عبده المزملاتى بأسرته، سد السكك عليها وقطع الفرص، كما أننى لم أنس فرنسا، سألتنى عن الكتب التى أقرأها غير كتب المدرسة، بدأت أعيرها روايات عالمية التى أستأجرها من الشيخ تهامى، بسبب ذلك طالت مدة الإعارة يومين أو ثلاثة، الشيخ لم يزعل طالما أن الكتب تعود إليه سليمة، أصبحت الكتب حجة لترددى عليها، صباحا وبعد الظهر، بعد عودتى من المدرسة أمر عليها وفى أيام العطلات، كانت تستقبلنى بابتسامة ناصعة، وتجلسنى فى مواجهتها مرتدية الجلباب ذا الحمالات الذى يكشف صدرها النافر، المتطلع بدون مشد، ثمة صلة لم أعرفها من قبل أو بعد بين عينيها وفمها، إذا نظرت إلىّ تنفرج شفتيها بيسر هين، كأنها تكلمنى بشفتيها وتحنى بعينيها، هذا ما بقى منها عندى، صار جسدها وذلك التعبير الموحد لعينيها وثغرها ذو الصلة بالبنفسج، البنفسج بالتحديد. . لماذا؟

لا أدرى.

مرة رافقتها، طلبت أن أصحبها إلى قريبة لها فى الدراسة، لفت جسدها بالملاءة اللف، سوداء محكمة، مبرزة لانحناءاتها ومفارقها، يطل من تحتها خصلتها التى تزيحها إلى الداخل لكنها تنفر من جديد، عبرنا بوابة حارة الميضأة، أوغلنا فى تلافيف كفر الزغارى، دروب، أزقة، عطفات، كلها تستعصى على الذاكرة إذا حاولت استعادتها رغم وضوح بعض النواصى، ومصبغة وفرن خبز بلدى وسيدة بدينة تسند وجنتها إلى يدها، لا يخضع المكان لترتيب، إنما أرى جزءا من آخره قبل أوله. أوزع بصرى بينها وبين ما أراه فى طريق أسلكه أو مرة، لم أعرف ماذا يجب أن أفعل عند سيرى بجوارها، هل أمسك يدها؟ هل أتطلع إليها بين الحين والحين؟

هى خففت حيرتى وأخذت عنى ، تقربنى منها إذا اتسعت المسافة ، تحدثنى إذا طال صمتى ، تتمهل متأودة عند مرورها أمام المقاهى ، سمعت الست روحية فيما بعد تسأل ابنتها بعد عودتها من خروجها اليومى قبل المغرب عما إذا لاحظت نظر أحدهم إليها؟

المقاعد المصفوفة للفرجة ، المارة تختلف أغراضهم كما تتغاير وجهاتهم ، زيجات عديدة نتاج تلك الرؤية ، لماذا أنأى وأبتعد وزواج أبى من أمى تم نتيجة رؤية عابرة عندما خرجت من بيتها لتعبر الرحبة ، لمحها فسأل محمد أحمد على الذى كان يجلس إليه : ابنة من هذه؟ ، فقال صاحبه وقريبه ، بنت على باشا ، أخطبها لك؟ . هذا أمر فصلته فى كتاب التجليات فلينظره من شاء .

عندما وصلنا البيت الذى تقصده . طلبت منى أن أنتظر أمامه ، ألا أنصرف لو تأخرت قليلا . لا تستطيع العودة بمفردها عبر هذه المسافة ، طلعت السلم وثبا ، درجتين ، درجتين .

كم انتظرت؟

حوالى ساعة ، لم أنصرف ليس لأنها طلبت منى ذلك ، ولكن لجهلى بالطريق ، النفاذ عبر تلك الحوارى صعب علىّ وقتئذ ، عندما شعرت بيدها على كتفى وقفت صامتا ، بقدر راحتى لظهورها لزمت أيضا الصمت احتجاجا على غيابها ، قالت إن صديقتها أصرت على بقائها وعندما استمر عبوسى ، مالت علىّ ، قبلتنى ، مست شعر رأسى بشفتيها فحل عندى الرضا غير أنها لم تنطق أثناء عودتنا ولحظات مرورها أمام المقاهى أسرعت بعكس الحال عند ذهابنا ، فى تلك الأيام لم يخطر لى تكذيب ما يقال لى رغم سعة خيالى وتوهمى أمورا لم تقع ، إلا أننى صدقت ما قيل لى . بعد سنوات شككت فى مشوارنا

ذلك العصر، ماذا يؤكد أو ينفى؟ من أين لى معرفة أنها صعدت إلى صاحبة لها؟، لكنها لم توصنى ألا أخبر أحدا، لابد أنها أدركت بذكائها حذرى من الإفضاء بالأمر إلى أهلى، خاصة أمى، صحبتى لها متضمنة لتواطؤ غير معلن، بعد عامين تقريبا سألت نفسى: هل استخدمت للتمويه؟ هل كنت ساترا لها؟ هل كان بانتظارها من يماثل فتحى الكهربائى بالنسبة لصفية؟، فى البداية حنقت، ومع لحاق السنوات ببعضها صرت أبتسم سخرية إذا تذكرت انتظارى، ما بقى عندى منها أغمق وأصعب، إذ ترتبط بأقدم مشاعر غيرة حادة عندى وتفصيل ذلك يبدأ من رصدى لاتجاه نظراتها عند وقوفها فى الشرفة لمتابعة المارة فى الدرب، أو لشم الهواء كما كانت تقول أمى عند وقوفها للنظر والمتابعة.

فرنسا تنظر وتلاغى طلعت

رصدتها عندما قاربت بين مصراعى الشرفة بحيث تبقى انفراجة مقدار أصبعين متجاورين يمكنى رؤيتها ولا ترقبنى، عندما رأيت ابتسامتها بعد صياحه على عبده البواب أدركت الوصل الخفى بينهما.

طارق يماثلها طولا إلا أنه أضخم، كل ما يمت إليه كبير الحجم، أنفه، دماغه، عنقه، يمشى بميل إلى الأمام، يلعب الكرة مع آخرين فى الدرب، صوته غليظ مثل ذكر البط.

تتسع عيناى إلى أقصى حد متاح، أمضى شفتى، أضرب الجدار بقبضتى، قبل نومى أتقلب ضجرا، حنقا، أفكر فى وسائل شتى للانتقام، أرى ظلى متجها إليه، أتعمد صفعه أمام عبده البواب وكامل المكوجى ومحمد حارس بيت السحيمى القديم، أتحداه للمبارزة خارج باب النصر، أختار شاهدى، يختار شاهده، نقف على مسافة

متساوية، أستدير فجأة أضغط زناد الغدارة، مرة يسقط هو. ومرة أصرع أنا وفى كلتا الحالين فرنسا ترقب، تنظر، تتابع من يمضون عبر الدرب، تنتظر ابن الحلال الذى لم يظهر له أثر حتى انتقالنا من الشقة عائدين إلى أخرى أصغر مساحة، أضيق فى درب الطبلاوى.

لماذا تنقطع الصلات بمجرد انتقالنا؟ كما لم تقع عيناى على نوال، كذلك لم أر فرنسا مرة أخرى رغم أننى قطعت شارع الجمالية مرات لا تحصى وما زلت، عندما وقع العدوان الثلاثى عام ستة وخمسين كان قد مضى علينا حوالى سنة خلالها تعثرت أحوال أبى، فالإيجار يوازى نصف راتبه، هذا بخلاف الكهرباء، وأجرة البواب، لم يكن لدى أى بيت فى درب الطبلاوى بواب، البيوت مفتوحة على الدرب، تظل مواربة ليلا، اللصوص ندرة، الخشية من الكلاب الضالة أكثر، فى الدرب الأصفر العمارة جديدة، وأصحابها يمتون إلى خبازين قدامى اسمهم مرتبط بأجود أنواع الخبز، لهم أفران فى أم الغلام والحسينية وثالث إفرنجى فى الظاهر، أسرة عليش، عم عبده من أسوان، متوسط الطول، كبير العمامة، بقى ماثلا عندى لأمر غريب يتعلق بحلقه. إذ كان متصلا به قرص معدنى يصدر صفيرا حادا متقطعا بصعوبة يمكن تمييز حروف الكلام من بعضها، لم أره واقفا أمام الباب إلا عاقدا يديه أمام صدره، متطلعا إلى شرفة فرنسا، لم يخطر ببالى شىء، خيل إلى أنه مهتم برصد الصلة بينها وبين طارق الذى يمت بصلة قرابة إلى أصحاب الملك.

بعد العدوان تعددت الأزمات وعلا صوت الوالد، وبكت أمى كثيرا، تم تقرر عزالنا بعد أن أقسم أبى أن الشقة مسكونة، وأنه رأى رجلا له ساقا إوزة وجناحان يعبر الصالة ليلا، قال إنه تأكد من عبده

البواب أن امرأة سكبت الكيروسين على جسدها وأشعلت النار، ماتت محترقة حزنا على وحيدها الذى صعقته الكهرباء فى الشقة عينها، يمكنه أن يفهم الآن سبب تساهل أصحاب البيت عند إبرامه العقد.

منذ أن أعلن أبى ذلك أصبحت أعول هم الليل، نزوله ومجيئه، أغمض عينى مرهفا السمع لرصد خطى الشبح الليلى القادر على إلحاق الأذى، استغرق الأمر وقتا حتى تمكن أبى من تأجير شقة أصغر، لم يكن ممكنا العودة إلى حجرة واحدة، لم نعد صغارا، عصر يوم لا أقدر على استعادة اسمه، توقفت أمام العمارة عربة يجرها حمار، فوقها تم ترتيب حاجاتنا، مشيت إلى جوار أمى خلف العربة، لحظة تحركها لمحت فرنسا وأمها وزوجها، حدت ببصرى بعيدا، فى ذلك الدرب أصبحت طرفا فيما يجرى عبر النوافذ ولست متفرجا يتبع ما يلفت نظر أبيه أو أمه أو يرقب ما يجذب انتباه حواسه دون أن يكون طرفا فيه، خرجت من الدرب الأصفر معنيا بالشأن، عدنا إلى درب الطبلاوى، لكن إلى بيت آخر مبنى أواخر الأربعينيات، هيكل خرسانى وطوب أحمر بدون طلاء، شقة من حجرتين صغيرتين متجاورتين يربطهما ممر، الأولى لها شرفة، والثانية نافذتها تواجه بيت أم فريدة مع أنها ليست مالكته، إنما يمت المالك إلى عائلة مسحراتى الحارة، أسرة من ثلاثة أشقاء، ذكران وأنثى، لكل منهم طابق، عدا الأرضى المؤجر، لعائلتها، لكننى لم أنسبه قط إلى زوجها الأسمر النحيل. كافة ما يتصل بالمكان متعلق بها هى، هى وليس غيرها.

عبر تلك النافذة عرفت الرجفة الأولى، انبثاق الركيزة من بين صلبى وترائبى، لذة مدثرة، مجوهرة لم أعرف مثيلا لها رغم تتابع صبى، قذفى ما يعمر به الكون حتى وإن لم يتحقق، بدأ الأمر منذ

الليلة الأولى لوصولى، عند حلولى بمكان ألزم فيه جانبا أيا كانت المدة التى سأقضيها، إقامة عابرة أو موقوتة.

فى اللحظات الأولى لفتحى المصراعين، كان ذلك قبل المغرب، ضوء غروبى لم يتحول بعد إلى غسق، الزمن خريفى، مذياع يبث أغنية شجية لعبد الحليم حافظ، نغم الفترة وصوتها الحنون، لا أسمعها إلا وأستعيد لحظاتى تلك بكل تفاصيلها، عيناى فى مواجهة طياتها، لم تكن أنثى فوارة، بل فخا متقنا، صدرها متاح له، تقف خلفه، بالتحديد تجثو على أربع، إذ إنها تطل من فوق السرير الممتد بجوار الجدار، تحت نافذتها مباشرة، حدت على الفور ببصرى كأنى لم أرها، لم تتحرك ظلت شاخصة، لقد ذكرتها فى الدفتر الأول «خلسات الكرى» وسأختلق الحجج لأستعيدها من جديد، فمرآها بالذاكرة يستجلب عندى كل مليح سافر، متصل بآنية أو زهر أو شجر أو عطر، بملموس وغير محسوس!!

كثيرون دققوا فى الشرفات، أطلوا من النوافذ، ليروا السكان الجدد، القدامى.

«أم جمال رجعت إلى بيت أم كوثر..».

تعرف البيوت بأسماء سكانها أو شخصيات تمت إليها بصلة وليس بأسماء ملاكها بالضرورة. أم كوثر سيدة تجاوزت منتصف العمر، تمشى على مهل ملتحفة بالملاءة اللف، تجيء من حارة برجوان حيث تقيم، خطاها قصيرة جدا، تسرى هادئة فكأنها طيف، صوتها خفيض، تظهر مرة واحدة، اليوم الثالث من كل شهر لتجمع الإيجارات وتسلم الإيجارات وتسلم الإيصالات، لا أحد يعرف مقر إقامتها، لو أنها لم تأت فلن يعرف أحد الطريق لتسديد ما عليه، مؤخراً

علمت أنها تسكن حارة بيرجوان، صاحبة البيت تقيم فى بنى سويف، صلتها بأم كوثر غامضة، إنها وكيلتها، يمكنها القراءة بصعوبة، والتوقيع بختم نحاسى دائرى صغير معتمد، هى التى تسلم العقود وتتفحص طالبى السكن، حرصت أمى على أن تنتظرها بالإيجار ثالث كل شهر، لا تدخل أى شقة، ولا تلبى أى دعوة لشرب الشاى أو القهوة، مرة واحدة طال حوارها مع أمى جملة أو جملتين أكثر . . طلبت أن يدعو والدى لشفاء ابنتها كوثر عند صلاته الفجر فى الحسين، أصغيت إلى صوتها الحزين، الموشك على البكاء لم أعرف فيما تلا ذلك ماذا جرى لابنتها التى لم أرها قط.

فى بيت أم كوثر استقر أمرنا ثلاثة عشر عاما متصلة، رغم مرورى بمراحل شتى، إلا أن تلك الحقبة مقترنة عندى بأم فريدة، لقد أوردت شيئا عن أم كوثر حتى أنأى قليلا فمجرد استدعاء حضورها عبر النافذة يبث عندى وقيدا خافتا لكنه مؤلم، موجع، مهما نأى وبعد، أطلت على فى غيابها التام أكثر من اللواتى عرفتهن بالحواس الخمس.

واثق، متأكد، أنها مفتتح أمرى مع أنى لم أقربها، إنما جرى حالى عبر الفراغ الفاصل بيننا، بقدر ما يفصلنى عنها من مسافة بقدر ما أولجت وأوغلت وعبرت من حيز إلى حيز عبر مفاوزها ومفارقها وخباياها، منذ عبورى النافذة إليها حددت موقعها ولزمته كما أدركت أننى هنا قابع من أجلها، مترصد ظهورها. من بصاتها الخلسى إلى ناحيتى، ضمها شفتها السفلى، عضها عليها، تطلعها السافر عند انسحابها إلى الداخل، تعجبها البادى، تلويحة يدها، أثق أنها ترانى رغم حجب حضورى عنها وراء المصراعين اللذين أشبكهما بالمقبض، يبقى فراغ ضئيل يتيح لى رؤيتها وصعوبة الإحاطة بى بدءا من اليوم التالى رحت أرتب أوضاعها وأحوالى.

موعد ظهورها حوالى الخامسة. توقيت تفرغ فيه من قضاء حاجة البيت والراحة بعد تناول الغداء، بعد الاستحمام بالماء البارد صيفًا يعلق قطر الماء بالمسام فيكسب الجلد ندى وتطرية، لا تدرك من قرب إنما من بعد أيضًا.

أسبقها قبل أن تفتح نافذتها وتقبل على النظر، أصغى إلى صوت المقبض المعدنى، عندئذ تظهر، تمد ذراعيها لرفع المصراعين، ترفع طرف جلبابها لتستند إليه، لابد أن تتجه ناحيتي، عندما تعدل وضعها تسرى الحركة بدءًا من ردفيها الهضباوتين فيسرى عندى خدر، حتى أوشك على الارتداد إلى عناصرى الأولى. بالطبع أهيئ أمرى، أغلق باب الغرفة، النوم بعد عودتى من المدرسة ثم الشغل عادة لم أنقطع عنها، بعد تجاوزى الخمسين نأت عنى، النوم بشكل عام لم يعد متصلاً، صار متقطعًا، أستيقظ بعد إيغالى بساعة أو اثنتين، لا أدرى أين سمعت من يقول إن ساعات النوم تقل مع التقدم فى العمر، ولأننى أمضيت السعى كله باذلاً الطاقة القصوى، فى الصباح عمل من أجل الدراسة أو المعاش، فى المساء للقراءة والتدوين لذلك كان علىّ أن أفصل بحيث يتضمن اليوم فترتين متباعدتين، أستيقظ بعد الظهر فكأنى أبدأ يومًا جديدًا.

خلال عصارى تلك الفترة لم أكن أغادر الغرفة بعد استيقاظى، إنما أتجه إليها، أطل، إذا كانت نافذتها مغلقة ما تزال أنتظر، إذا اقترب المغرب ولم تظهر فلابد أن طارئًا وقع. عندئذ أخرج إلى الحوض الصغير، أغتسل، أقف تحت الدش قليلاً إذا كان الوقت صيفًا وهذا أوان سفور تضاريسها، قميص النوم الرهيف المنحشر دائمًا بين ردفيها الأشمين، إتباعه لمنحنى ظهرها، يستقر صدرها أمامها، تقف وراءه،

تتبعه ويتبعها، مرات قليلة رأيتها عن قرب، مرة جاءت لزيارة أمى. بمجرد عبورها الباب أزاحت الملاءة اللف، طالعت امتلاء ذراعيها المحكم واستدارة كتفيها الريانة، المؤدية عليهما، طلة صدرها الحاضة وإشهارها مفرق النهدين. مرة أخرى أمام شقتها، كنت أقف أمام المدخل فى انتظار شخص ما يمت إلى العائلة مالكة البيت. فتح الباب فجأة، أطلت منحنية تكنس الأرض، إنها المدة التى أحطت فيها عن قرب باستدارة نهديها وتمكنت من اكتمالهما، حتى إننى رأيت الحلمتين وسط الدائرتين الغامقتين، أقرب إلى البنى، نظراتها من تحت إلى فوق، مصوبة تجاهى. أستعيدها مراراً، حاضة، داعية، لكننى لم أبد أى رد فعل، ولم أظهر انفعالاً، غير أن بصاتها تجاهى تقول ما لا تنطقه، تشى بإدراكها وقفتى وإقبالى، إلى أن اكتمل أمرنا ذات عصر عندما أحدثت صوتًا قصيراً ينم عن نشوة، رفعت رأسها تجاهى، استمرت متطلعة ابتسمت ثم عادت تنظر إلى الدرب وما يحويه، غير أن قميصها انحسر عن ساقيها، ارتفع إلى ما فوق الربلتين، وآه من ربلتيها، تعددت اهتزازاتها وتحركها، من ناحيتى لم أعد أخفى حضورى إلا عن سواها، ما أخشاه أن يلحظ آخرون وقفتى واندماجى حتى لحظة بذلى محتواى، لعلها الأكثر دراً لى. تتجاوز من عرفتهن ونفذت إلى عوالمهن، الغريب.. أننى عند لقائى بها لم أظهر اللامبالاة والخجل فحسب، إنما لم يتحرك عندى شىء، كأن شرط الاكتمال يكمن فى البعد، لابد أن تكون بعيدة، أنثى وحيدة أدركت ذلك عندما خبت معها بعد تمام أثر انقطاع ثلاثة عشر عامًا، قالت:

«يا خوفى تكون ممن يحب البعيد..».

كأنها كشفتنى لذاتى، وأضاءت منى ما غمض علىّ واستعصى

فهمه، ليس استثارتى عبر البعد فحسب، إنما التوقيت الأمثل المناسب لممارسة الحب عندى ليس ليلاً، إنما عصراً فيما يلى تناول الغذاء، إنه الوقت الذى أبدع فيه إلى حد الزهو.

البعد نتاج المسافة الفاصلة ما بين فراغ النافذة ونافذة فادية ، سطح صفية والإطار الذى تطل منه أم يوسف، أما الوقت فمرجعيته زمن الطلة والتدقيق ثم الاحتواء. إنه العصر الممتد إلى الغروب ثم الغسق، دائمًا العصر الذى تتأجج فيه دفائنى، إنه القوت الأول، وقت أم فريدة المطلق.

فى أول أسفارى إلى الضفة الأخرى من المتوسط صعدت إلى الشمال، عند توقفى بمطار بودابست لتغيير الطائرة لفت نظرى بنية سامقة، لشعرها انسياب يتجاوز بداية ردفيها، فصلت بعضا من أخبارها فى كتاب التجليات غير أن ما أذكره فى هذا التدوين متعلق بنوافذها. عندما وصلنا إلى وارسو رسخ عندى اللون الأخضر المضىء، كنا فى أبريل. احتفلت بعيد ميلادها الرابع والعشرين وأبدت لى فيضًا، فى المطار تفرقنا، لم تكن تعرف أين سأقيم، لكننى بمجرد أن سألت من ينتظرنى عن فندق إقامتى اتجهت إليها وأخبرتها بالاسم وعرضت عليها العنوان الذى طلبت تدوينه على قصاصة اقتطعتها من صحيفة حملتها معى. جاءتنى صباح اليوم التالى، مضينا معًا، تعلقت باللون الزاهى للخضرة الكثيفة وبعد تناولنا الغداء طلبت منها الخلوة. فاقترحت على أن أصحبها إلى حيث تقيم. ركبنا عربة أجرة. عبرنا نهر الفستولا، أعجبنى اسمه وبقى معى، عند نقطة معينة أمكننى احتواء المدينة كلها من نافذة العربة فأدركت أننى مقبل على الضواحى، نزلنا عند قنطرة مبنية من حجر أحمر، الأعشاب الخضراء بازغة من

الأسفلت، مشينا قاصدين مجموعة من العمارات المتشابهة، بيضاء الطلاء، نظيفة، تطل على أرض غير مستوية خضراء، أسرة تقيم فى طابق أرضى، تؤجر إحدى غرفها للإقامة، ربة المنزل سيدة خمسينية، جمالها قائم، ماثل، أبدت ودًا وترحيبًا، كانت الغرفة مستطيلة، تنتهى بنافذة مستطيلة يتحول الضوء عبر زجاجها من ماء صاف إلى حليب النور.

غرفة بسيطة لا تحوى إلا سريرا يتسع لكلينا إذا ما تمددنا متماسين، ما بين الفراش والنافذة فسحة بها صوان صغير، فوق الأرض حقيبتها، لمذاق جسدها ملمس ورق الورد المندى، لرقته كأنى أعانق الفراغ أو أذوب فى الماء، نظرتها حاضة على استدعاء المعانى التى لا يمكن الإمساك بها، بل إن مثولها فى الذاكرة جالب للحظات لم تمر بى بعد، وقد لا أعرفها، مثل بنية لا أعرف ملامحها تمت إلىّ وأنتمى إليها، تحدق عبر نافذة مفتوحة على خلاء غروبى وبداية غسق، تسند رأسها إلى يدها، تحدق وتتذكرنى، تستدعى لحظات قربى وتطلق آهة حرى، تحزن من أجلى، لا أعرف هل ما زلت أحيا، أم طوتنى القوارير فى وقتها؟

أرانى جالسًا فى مقهى قريب من جسر، أستدعى ما كان وأتحسر.

أعبر صالة فسيحة، أتوقف منتظرًا طرح سؤال، ممن؟ لا أعرف..

أحكم إغلاق حقيبة، أتاهب لسفر ولا ألم بالوجهة.

ما صلة هذا كله بتلك الأنثى الهنغارية التى قابلتها خلال الرحيل وأمضيت بصحبتها أربعة أيام كأنها عهد؟

لا أعرف.. لكن يمكننى القول أننى لم أعرف انفرادًا كما حدث معها فى تلك الغرفة.

حجرة فى مسكن لا أعرفه، أجهل عنوانه الآن. أتوحد فيه مع أنثى شابة، هفهافة، حنون، قابلتها صدفة، فراغ، مؤطر، تصله النافذة بالخارج، ثمة أصوات أطفال يلعبون فى الساحة المزروعة بالحشائش، نداءات متباعدة، صيحات متفرقة، قريبة جداً، غير أنها بعيدة، قصية، كأنها قادمة من كون مغاير، لذلك لا تزيد تقوقعنا وتكوكبنا إلا عمقًا وفرادة، لشدة امتزاجنا صار أقرب القرب نائيًا، قصيًا، ما من شيء يرقرق مكنونه مثل تلك الصيحات والنداءات رغم انقضاء الأوقات، عندما أقف متطلعا أرى الوجود كافة، كانت النافذة مشرعة للرؤية، يمكننى أن ألمح السماء منها، والمبانى المقابلة وندف غمام راحلة، عندما وقفت عارية كأنها إشهار. اقتربت من النافذة، قلت إنه من الممكن رؤيتها، قالت لا أحد ينظر إلى النوافذ هنا. ثم أشارت إلى الستارة الرقيقة.. إنها حاجبة. لا أحد يتطلع إلى أحد هنا..

عبارة استوعبها مسمعى بعد أربعة أعوام. كنت بصحبة لور وأمرها مفصل أيضا من قبل، عندما جاءت أول مرة إلى الغرفة الصغيرة فوق سطح العمارة الباريسية القديمة والتى أمضى فيها أيامى، كان اليوم صحواً، والسماء زرقاء صافية، أقدمت، فتحت مصراعى النافذة، أطلت على سقوف البيوت المتوالية، منطقة قديمة، معظم بناياتها تعود إلى القرن الثامن عشر، عندما تجردت من قميصها طلبت منها إغلاق النافذة، قالت:

لا أحد يتطلع إلى أحد منا

غير أنى بعد قليل. قمت لإغلاقها رغم أنها كانت الأعلى فى المنطقة، يمكننى منها رؤية النوافذ المحيطة وأواجه الفراغ عند تمددى فوق السرير الضيق، لكنها تقبلنى وتطلب منى أن ترى السماء أثناء

رقادنا، أضطر إلى القبول على مضض، ما بين الفتح والإغلاق علقت عندي لحظة خلفيتها سماء بلون البحر فى المواضع غير العميقة، وغفوة رحت فيها بعد توالج دام وقتًا وأورثنا إنهاكا صحوت منه فإذا بها تعلونى، ترتكز على راحتيها حتى لا يثقل جسدها صدرى، نهداها يلامسان مشارفى، كانت تدمع، مالت تقبلنى فرأيت الحضور من خلال بكائها حزنًا لأن ميعاد رحيلى غدًا.

كان الوقت عصرًا أيضًا فى آسيا، ولكن الطابق أعلى، كان السادس والعشرين. شقة رقم اثنين وخمسين، تطل نافذة حجرة النوم على ساحة تنتظم حولها المبانى المرتفعة. فى هذه الشقة يقيم والدى فاليريا وأمرها معروف، مدون فى رسالتى إلى صاحبى عما كابدته من صبابة ووجد، عيناها بهما مس من زمرد نقى وشىء من عقيق، فما أعجب وأغرب امتزاج الأخضر بالعسلى الغامق المائل إلى البنى، غير أنها بعد إطلاقها صرخة الأوج ترسل ضوءًا خفيًا قادمًا من داخلها، فيه الرضى وفيه المنى وفيه السبع أراضى والسبع سماوات والآفاق الأساسية والثانوية وما كان وما سيكون، لمعة جوانية، برقة من بحر الصين وساحل المحيط وما خفى عن البحارة الجوابة.

جهدى كله معها أن أصل بها إلى تلك الصيحة، كناية الحضور وخلاصة التحقق، برنامج العشق وسجل ما يفنى، تبزغ فجأة بعد صبرى عليها وطول معالجتى وترحالى عبرها، لم أعرف ذلك فى كل من قدر لى أن أتوحد بهن، الحق أنه ما من شبه، كل أنثى مفردة. لا شبيه ولا تكرار، رائحة الحضور مغايرة والملمس كذلك لحظة الوصول إلى الذروة، فمن بكاء يتخلله صياح، إلى أصوات لا يمكن تصنيفها، إلى رجاء متوسل، إلى ضحك على غير هدى، لكن فاليريا اختصت بتلك الصيحة النفضة.

لا يمكنني تعيين مصدرها، لا حنجرة ولا رئتين، إنما تجيء من كل فج، تباغتني رغم أنني أتوقعها، بل أسعى إليها، بل إنني مفجرها ومستدعيها مطفئها، لكن لحظة اكتمالها لا يمكن تعيينها أو تحديدها أو نسبتها، في الذرى لا يكف وعيي عن الرصد والترقب وتأمل ما يتوالى من انفعالاتها على الملامح، لم تشملني لحظة النشوة التي تنصهر فيها العناصر كافة إلا مرات نادرة أفضل ألا أبوح بها فذلك أمر دقيق.

صرختها ذات صلة بالنافذة التي كنا نغلق زجاجها ونسدل ستائرها الشفيفة لأنه لا يمكن تحديد منبع لها رغم صدورها عنها، كان افتراض قدومها من الخلاء المسافر بين النجوم وارد، لذلك ترتبط استعادتها بالعصر، الضوء المروض القادم من الخارج، وحتى تدويني هذا أرجو، وأسعى لعله يمسني أو يشملني فأتذرى به، دائما أفكر في الصورة الأخيرة التي ستمثل بذهني قبل انطفائي إلى الأبد وخمود جذوتي، من أي فترة وإلى من تمت؟ لكن أفكر الآن في الصوت، لماذا افترضت أنني لن أسمع صيحة ما منبعثة من الماضي الغارب؟ يخطر لي أحيانًا أن صيحتها تلك ستدركني عند أفولي فتلحقني ولا ألحق بها.

ضوء العصر وأفضلية لحظاته لممارسة الحب، أصوات متباعدة، إثارة مستفزة، ينحدر هذا كله من نافذة أم فريدة المتصلة بنافذتي، هذا تقديري وأحد مصادر فيضي، تتصل النوافذ عندي بالرغبة لأنها مفضية إلى الآخر، إلى الجانب المقابل، لا أرى أنثى ممن لفتن نظري إلا عبر نافذة، فإما مفتوحة أطل منها عليها مباشرة وإما مواربة أختلس وألغي المسافات بالمخيلة وإما مغلقة علي في حجرة ننفرد بها، كل نافذة مؤدية بالضرورة، إما إلى معرفة أو كشف، كل نافذة اتصال، تجاوز لما نعرفه إلى ما نجهله.

حدث عام ثلاثة وستين وتسعمائة وألف أن عملت رساما للسجاد الفارسي الذى تخصصت فيه وكان مقر عملى فى الطابق الرابع من بناية سكنية تم تخصيصها للمؤسسة، وورائى نافذة تطل على عمارة أعلى، واجهتها على الناحية الأخرى، ما نراه نوافذها الخلفية، ذات صباح كنت فى الصالة بمفردى، وقفت أتطلع عبر النافذة إلى النوافذ المغلقة فى الطابق الموازى، لم أرها مفتوحة قط، من أسفل تهب رائحة الفانيليا والشيكولاتة المصهورة، مخبز إفرنجى اشتهر وقتئذ بالحلوى الإفرنجية والمخبوزات.

فيما بعد أيقنت أن أمرًا خفيًا دفعنى إلى الاتجاه بالبصر نحو النافذة المغلقة منذ بدء استقرارى هنا. فجأة .. خبطة المصراعين على الجدار أثر الفتح المفاجئ، تمكنت من ملامحها، كل ما فيها محدد بدقة، الشعر الكثيف، غامق السواد، حاجباها، عيناها، فمها السخى، جلوة بشرتها، تسارع النظر منى إليها مستهدفًا الإلمام بأقصى ما تمكننى منه الطاقة المتاحة، جسد يضوى فى مواجهتى، نموذج لما يجب أن يكون عليه الصرح الأنثوى، استوعبت حمرة حلمتيها ونفرتهما، استدارة سرتها المركز، وانسيال فخذيها إلى ما يحجبه الجدار السفلى عنى.

كم ظلت؟

مقدار ثباتها فى وعيى إلى الآن. كما بدت فجأة مالت قليلاً باسمة. داعية لى بالنظر، أمسكت بطرفى المصراعين، خبطة أخرى لكنها مصاحبة للغلق، للسد، ومنذ ذلك الحين ولمدة ست سنوات أمضيتها فى تلك الصالة أتوقعها، إذا انفردت ألتفت طول الوقت داعيًا، راجيًا، متمتمًا بما يجب أن يقال عند ظهورها، وإذا كنت فى جمع أستدير عند كل خبطة، عند الصوت المصاحب لكل فتح، لكننى لم أرها قط، كما

أن النافذة لم تفتح حتى بدأ الأمر يتداخل عندى، أحقًا ما وقع عليه بصرى أم أنها خاطرة؟

ألحت علىّ فى غيابها أكثر مما كان ممكنا مع حضورها الخاطف، ودونت تفاصيل ظهورها فى نص أسميته « كشف »، وحتى الآن لا أمر بتلك البناية إلا وأتطلع إلى فوق، إلى النوافذ الخلفية، لعل وعسى، لكننى لا أقابل إلا بالغلق، ولا يحدث فتح ولو لجزء من الثانية، لكننى لا أستعيد اللحظة إلا وتدفق عندى طاقة، وينبت تطلع، أوقن أننى سأراها يومًا بنفس الهيئة التى رأيتها عليها، بنفس اللمعة والضى.

عبر النوافذ أتقنت الانتظار، المتابعة للفرجة على العابرين أو إشباعًا لفضول ورصدًا لحدث أو استيعابًا لأنثى لا أطالها بالحس، غير أننى منذ أيام الحبس الانفرادى فى القلعة اعتدت العزلة وألفتها، ربما كان عندى الميل إلى ذلك، الاستعداد المبدئى ونما مع التقدم فى العمر لعلى أفصل الأمر عندما أتحدث عن نوافذ العزلة، لكن الأمر الآن متصل بالرغبة.

فى عام ثلاثة وسبعين، بالتحديد فى الرابع من فبراير استيقظت من النوم ونزلت إلى الطريق متجها إلى عملى سالكا طريق باب البحر المفضى إلى كلوت بك ثم إلى شارعى الجمهورية ورمسيس، يفيض باب البحر بالحيوية بالحركة بخصوصية الناس، كعادتى توقفت عند بائع الصحف، أطالع العناوين، فوجئت بعنوان الأخبار الرئيسى أحمر اللون.

«إجراءات حاسمة ضد المنحرفين. . ».

اسمى رقم ثلاثة وعشرين. .

أكثر من مائة وعشرين أديبا وصحفيا ومفكرًا، انحرفوا، تقرر

فصلهم من عضوية الاتحاد الاشتراكى، الحزب الحاكم والوحيد فى الساحة وقتئذ، الطريف أننى لم أكن عضوًا به فى أى يوم وليس لدىّ بطاقة انتخاب، ليس عندى إلا البطاقة الشخصية ثم العائلية للضرورة، أكره الوثائق، أتمنى أن أمضى مجردًا من كل وثيقة، وثاق، بل إننى لم أستخرج بطاقة تموين حتى بعد زواجى. عدت إلى البيت وبدأت شهورا سبعة صعبة حتى إلغاء هذا القرار قبل بدء حرب أكتوبر بأسبوعين. الطريف أيضًا أننى كنت مراسلاً حربيًا، تخصص اخترته منذ عام تسعة وستين لتهدئة نفسى واستعادة أحوالى التى اختلت بعد يونيو، وهذا مما يطول الحديث فيه.

ما شغلنى وقتئذ المرتب، لم يكن لدى أى مدخر، فى نفس الوقت انتقلت مع أسرتى إلى شقة إيجارها خمسة عشر جنيها، وكان بالقياس إلى الفترة ومرتبات أخى الذى تخرج فى الكلية الفنية ومرتب أبى القليل باهظًا أورثنا مشاكل عدة. أضيف فصلى إلى ذلك وأمور أخرى ليست بالهينة، علمت أنهم سيصرفون مرتباتنا لمدة ستة شهور، يعاد النظر فى أوضاعنا بعدها، ومن لم يتقرر عودته سيحصل على نصف مرتبه لمدة ستة شهور أخرى بعدها تفض العلاقة معه ويصبح بلا مورد.

آويت إلى البيت، شغلت وقتئذ بالكتابة، كما أننى لأول مرة أجد نفسى متفرغًا، غير مطالب بالاستيقاظ فى وقت معين للذهاب إلى المكتب، هذا حالى منذ أن بدأت العمل عام ثلاثة وستين، مازلت حتى وقت تدوينى هذا.

ربما أطلت فى ذكر التفاصيل، لكن للوصول إلى النافذة لابد من سياق. تطلعى منها فى إطار ظروف لابد من إيراد لمحة عنها، لأول مرة أمكث طوال اليوم، بدأت أكثر من النظر، العمارة حديثة، ارتفاعها

عشرة طوابق، نقيم في الثامن، أرى أسطح البنايات القديمة كلها، النوافذ المستطيلة الفسيحة مماثلة لنوافذ أم سهير وأم علية في عطفة باجنيد.

في الصباح الباكر مع شقشقة الضوء اعتدت رؤيتها قبل تمددي سعيًا إلى النوم بعد ليلة أمضيتها في الكتابة والقراءة. شابة متوسطة الطول، تصعد مرتدية قميص النوم، حافية، لتطل على الدجاج والأرانب، تبدو كأنها تطمئن، ربما تخشى هجوم العرسة، ترتب أواني، وتنظف بعض المواضع، في الدروب والحواري يظهرن بنفس الملابس التي يتمددن فيها، إلا إذا كان ثمة يسر مكنها من شراء قمصان النيلون الشفافة، تلك لا ترتديها عند الخروج إلى السطح أو البص عبر النافذة.

تلك الشابة التي اعتدت رؤيتها صباحًا لم تكن إلا تمهيدًا للصبية التي اندلع حضورها في مجال رؤيتي ذلك اليوم عصرًا، بداية مارس، الضوء ساطع والخماسين في بدايتها، موجة حر شديدة جعلت الناس يتنبأون بما سيكون عليه الحال في يونيو وأغسطس! . أجمل أوقات السنة ما يكون في الخريف، ربيعنا المصري يبدأ من سبتمبر، وربما نوفمبر، يشف الضوء، ويلين الجو، تحن النسمات، لأن نافذة حجرتي تواجه الغرب، اعتدت أن أغلقها عصرًا، أو أواربها، في هذا العصر تناولت كتابًا لديستوفسكي أعود إليه من حين إلى آخر، ذكرياته في المنفى السيبيري، الذي أطلق عليه «بيت الموتى» قبل أن أجلس إلى المنضدة التي كنت أضع فوقها كتبي وأوراقي.

لمحتها. .

تقعد مستندة إلى السور المؤدي إلى السلم، صبية ربما في الرابعة أو الخامسة عشرة ربما أقل، لكنها انفجار مستمر يبث غواية وتحريضًا،

استدراتها مبكرة، طازجة، رأيتها قاعدة، ولأن جلبابها أو قميصها كان قصيراً، ولأنها وحيدة فوق السطح ومعظم نوافذ العمارة مغلقة كانت تجلس غير مبالية، ، رأيت فخذيها البضين وبالطبع ساقيها أما ذراعاها فكانا عين المدد، كان المدى شاسعًا بين ملامح وجهها التى لم تفارقها الطفولة بعد، وبين اكتناز جسدها لهذا الفيض كله.

كانت فخًا، رأيته ولم أنثن. . .

لم أتراجع. لم أختف، إنما فتحت النافذة، وقفت متطلعًا إليها، أصاحبها، ألمسها، أتحسسها، أضمها بالنظر. لدقيقة أو أكثر علقت نظراتنا، تداخلت لا تنثنى ولا أتراجع، من دفء إلى غليان، فار الفراغ الفاصل بيننا، تنثنى، تعاود التطلع بنظرة جانبية كما الحمامة التى تتوقف قبل تحليقها لتنظر بعين واحدة إلى ما لفت نظرها.

أنهيت الشد بابتسامة، جاوبتنى بمثلها فتقدمت، اتكأت على الحافة، عندئذ قامت متمهلة، سوت ثوبها القصير، شدت أطرافه، أسفر عن صدرها المتطلع، عين الفترة وعلامة البزوغ، مشت على مهل، بالتأكيد مغايرة، فثمة من يرقب، ويتلقى أصداء كل خطوة، مضت إلى السور الغربى، كان منخفضًا نسبيًا، أولتنى ظهرها، استدارتها رغم صغر سنها مسكرة، ترتكز على ساق واحدة ثم تنقل ثقلها إلى أخرى فيبرز ردفاها عند الحركة فأوشك على الولولة.

فجأة . . تلتف برأسها ناحيتى، تبتسم، إذاً . . أينعت الخصوصية.

لم يعد الفراغ القاهرى العتيق إلا إطاراً وخلفية لحضورها، لبثها الندى، لكشفها وحثها، لزمت البيت أربعين يومًا كاملة لم أخرج. لم أر الشارع إلا من نافذة غرفتى أو من الشرفة المطلة على ميدان باب

الشعرية المزدحم، الذى تمر به كافة أنواع المواصلات من عربات يد وحافلات وملاكى وأجرة وترام، اكتفيت بالهاتف لمتابعة أحوالنا ومساعى الزملاء لعودتنا إلى أعمالنا، كنت مكتفيًا بالكتابة ليلاً والقراءة وهذه الصبية التى سقت منى الخلايا عبر إلغاء الفراغ ما بيننا، وتحويله إلى نشوة.

أصبحت مواقيتنا متسقة، إنه العصر، بالتحديد ما بين العصر والمغرب، أعمل ليلاً نشطًا لأنه سيكون الصبح غدًا والظهر يعقبهما عصرها، ينزل الليل علىّ هادئًا، متمكنًا، متزودًا بما يكفينى حتى الغد.

عبر الفراغ الفاصل، تبادلنا الحوار، مرة بإشارات الأصابع، مرة بالنظر، مرة بالالتفاتة، بكل وسيلة تمكن من اجتياز هذا الفراغ الفاصل وإلغاء المسافات، رغم أن السطح الذى تتحرك فيه مكشوف للناظرين، إلا أنها لم تعبأ، حركتها، مشيها المتأود، انحناءاتها، جلوسها فى أوضاع معينة كنت أطلبها وعندما ترفع كتفيها علامة الدلال الرافض ألح، ألمس صدرى بيدى أى: من أجلى أنا. علشان خاطرى. عندئذ تشير بأصبعها علامة دالة على مرة واحدة ولن تتكرر. أرضى بما رأيته. انفلاتها السريع صوب السلم إذا ناداها أحدهم من تحت، أفضت إلى بأخبارها، بأحوالها، تنبأنى مقدمًا أنها لن تأتى غدًا لخروجها مع الأهل. وبرغم معرفتى مقدمًا إلا أننى كنت أتطلع منتظرًا لعل وعسى، وعندما يفوت الوقت أراها فى السطح كله، جالسة، ماشية، راقدة، مهمومة، منفرجة. تمشط شعرها وتتطلع إلى ضاحكة، ضحكة صبيانية لا تتناسب مع اكتمالها المبكر، كان ذلك سر تفجرها ومغزى فرادتها، ذلك التناقض بين عمرها الفتى وأنوثتها الفوارة التى تجاوزت محدودية جسدها وأتمت ما بدأ منه. ولعلها أكبر مما قدرت، أنى لى أن أعرف؟

رأيتها فى غيابها، فى الليل يصلنى نفحها الذى تبقى بعد مفارقتها، وأحيانًا أكاد أوقن أنها ترمقنى من مكان لا أقدر على تحديده. صرت إليها بالكلية، فى الليل أهيئ ما سأطلعها عليه غدًا، ما سأرويه لها بالإشارة، واللهفة التى سأشيعها عبر بريد النظر.

لحظتان لا أقدر على مفارقتهما، أستعيدهما غير مصدق، حائر بين وقعهما فى الحس، وتخيلى أو توهمى لهما، الأولى عندما انطلقت فجأة لترقص فى الفراغ كأنها تطير ولا تلمس الأرض، حتى الآن لا أرى الراقصات المتزحلقات على الجليد، انسيابهن الخاطف، دورانهن السريع حول أنفسهن إلى درجة تلاشى الحضور الجثمانى من مجال البصر، يتحولن إلى ضوء متداخل، شظايا وجود، إلا وأستعيد رقصتها تلك وقفزاتها إلى أعلى، صوبى، حتى أمسكت أنفاسى أكثر من مرة خشية إفلاتها، لكنها بدت متقنة لما تفعل، تنبعث الطاقة من أعماقها، أما فردات ذراعيها فعين التمكن، كذلك دفعة رأسها، وإشهارها التفاصيل.

اللحظة الثانية العالقة، بل يمكن القول إنها الأولى، أذكرها على استحياء خشية سوء الظن وبؤس التأويل، لولا ما ألزمت نفسى به عند هذا التدوين أن أعتقل الشاردة، وأمسك مابين الظل والأصل، ولا أخفى شيئًا، رغم المسافة إلا أنها بدت فى ذلك العصر فواحة، استثنائية العرض، ربما لقصر الثوب الأزرق، الذى كان وسطا بين الجلباب وقميص النوم، جئت بالمقعد، وقفت فوقه فظهرت لها بطول قامتى تقريبًا، وعندما تجردت من قميصى، وملابسى الداخلية العلوية. فوجئت بها تمسك بحمالتى القميص النحيلتين، تزيحهما عن كتفيها البيض، تجذبه إلى أسفل. فقط . . سروالها.

وعندما اكتمل عربى، ثم عريها، صرنا إلى هاوية!

لا أعرف أن تلك اللحظة ستلزمنى، وأننى سوف أستعيدها طلبًا للبث وعونا إلى الوصف مع إناث صرن إلىّ ولكن قلة الطاقة لم تسعفنى، غير أننى أستدعيها فتكتمل مروتى، كثير من اللحظات التى علقت بى ونفذت عبر حنايا الذاكرة لم أعرف نفاستها ولم أدرك تفردها إلا بعد انقضائها، لم أقف على ندرتها إلا بعد فواتها، وحتى تدوينى هذا لا تمثل أمامى تلك الصبية إلا وأبثها إعجابى عبر العدم، فلا أعرف لها مكانًا، ولا أدرى إن كانت لا تزال تسعى أم أنها هناك!، أجهل اسمها. يغمرنى عرفان لجرأتها وتجاوبها وعبورها الفراغ الفاصل، تبدد بحضورها ظرفى الصعب، إلى درجة أنها رطبت أيامى العسرة وقتئذ رواء ومنة لا أستدعيها إلا أواجه الغرب من خلال نافذة تلك الغرفة، الوقت أصيلى ضامر، لا يستثير غسقى الشفيف مثل العصر.

فى باريس لزمت العصر.

منذ وصولى إليها أول مرة اعتدت الإقامة فى بيت صاحب حميم، عرفته زمنًا قبل أن يسافر من مصر سنة ثلاث وسبعين وتلحقه زوجته التى التقيتها أوائل الستينات عندما كان يمضى سنوات الاعتقال فى الواحات، أكن لهما الود الجميل، رحم الله على صاحبى الذى ذهب إلى هناك قبل بداية تدوينى هذا ببضعة شهور، ما بينى وبينهما يحتاج إلى تدوين، غير أننى أقصر هنا فأقول أن بيتهما سواء هنا أو هناك بيتى، ومنه فى ذاكرتى لحظات مجوهرة، خلال السنوات الأخيرة بعد عودتهما إلى مصر قبل رحيل على أمضيت فى البيت أوقاتًا بمفردى.

من نافذة الصالة ـ بعرض الواجهة ـ يمكننى رؤية أبرز ملامح المدينة، فى الأفق ناحية الشمال، على مرتفع كنيسة القلب المقدس،

تحتها منطقة الفنانين، مونمارتر، أبراج نوتردام، قبة البانتيون، برج إيفل، أسقف البيوت العتيقة التى لم تتغير واجهاتها مهما جرى داخل البناية من تعديلات، بناية طوبها أحمر قاتم على الناحية الأخرى. قريبة، مستشفى معروف، فى إحدى غرفه توقف قلب عليّ صاحبى عن الركض بعد أن لحقته أزمة فجراً، خلال السنوات الأخيرة أخشى موت الغربة، أن تدركنى المنية فى فندق بعيد، أو عند انتقالى عبر المطارات، تبديلى طائرة بأخرى، ربما لهذا أعتذر عن الكثير من الأسفار، عن الندوات والمؤتمرات، وهذا حال دقيق يطول الحديث فيه، عبر تلك النافذة يمكننى رؤية عمارتين، بل يمكن القول: برجين، يرتفع كل منهما حوالى أربعين طابقًا، الشقة فى الحادى عشر، يمكننى أن أرى ما يجرى فى اثنى عشر طابقًا من كلا البرجين، حيوات تمضى على مرأى، الستائر مرفوعة، وكافة التفاصيل متاحة، تذكرت لور عندما قالت:

« ما فى أحد بيتطلع على أحد. . . ».

ربما لأن كل شيء واضح متاح، لم أدقق هدفًا بعينه، مرة واحدة عصراً، رأيت جماعًا محمومًا، بدا ذلك من حركات المرأة، تقلبها من سفل إلى علو، إمساك الرجل بشعرها، توليه ظهرها، وجهها ناحيتى، ثمة قسوة فى الوضع وإن بدا إلى الطبيعة أقرب، ألا تتوالج الحيوانات كافة عبره، وسمعت من يقول إن احتمالات الحمل من خلاله أقوى. فى اليوم التالى، ربما فى عين اللحظة جرى ما رأيته أمس، توقيت اتفقا عليه، يناسبهما، لم تدركنى أى إثارة، بل إننى وليت بعيداً عنهما لحظة اندماجهما، كثيراً ما رايت أنثى فى هذه الشقة أو تلك تمشى عارية تمامًا، لا أتابع ولا أدقق، بل أحيد بالبصر مع أننى بمفردى ولا رقيب.

لا أدرى لماذا تذكرت الآن حديثا جرى عام ستة وستين عندما نزلت المعتقل السياسى، هل لأننى أحمل السجين فى داخلى حتى عند انتقالى وعبورى الحد بين مكان وآخر، حتى عند فرفرتى وتحليقى؟ لا إجابة عندى، وكم من الإجابات ستظل مبهمة حتى خروجى إلى هناك. لم يكن مسموحًا لنا بالعمل خارج الغرف، كنا نقوم بأعمال النظافة داخل العنبر فقط. فى الممرات الخارجية، فى الفناء الذى تطل عليه النوافذ التى تتخلل فراغاتها القضبان، فى مكاتب الإدارة، كان المكلف بأعمال النظافة والتشجير ورعاية الزرع وما شابه المساجين العاديين، المحكوم عليهم فى قضايا تتصل بجرائم القتل والسرقة والمخدرات، وهؤلاء يجيئون من الليمان القريب ويرجعون قبل الغروب، كانوا يرتدون ملابس زرقاء بعكس ملابسنا بيضاء اللون المتربة، الخشنة النسيج، القديمة، المهلهلة، وغير التنبيه عليهم بعدم الحديث معنا إلا أننى حاورت بعضهم، خاصة الصعايدة منهم، بينهم عثرت على من أبحث عنه، المحكوم عليه بالمدة الأطول، كان قصيراً متين البنية، مزرور العينين، مزموم الشفتين، جملةالأحكام الصادرة ضده ست وثمانون سنة، ارتكب عدة جرائم سطو وخطف وقتل، بدأ تنفيذ المدة قبل دخولنا بثلاثة أعوام، وعندما سألته: متى سيخرج؟ أجابنى واثقًا إنه فى حالة عدم شموله بقرار العفو السنوى الذى يقضى بالإفراج عن المساجين الذين أمضوا نصف المدة لحسن سيرهم وسلوكهم، إذا أمضى المدة كاملة فسيجتاز الأسوار يوم الرابع عشر من سبتمبر عام تسعة وأربعين بعد بدء الألفية الجديدة، أما خروجه بعد نصف المدة فهذا لن يقع قبل عام سنة بعد تمام الألفين وهذا أمر علمه عند الله.

لفت نظرى بوثوقه وثباته ورسوخ أمره واطمئنانه إلى قضاء المدة،

وعندما سألته عن أسرته: قال متسائلاً: الجديدة أم القديمة؟، قال إن الأولى فى البلدة تدبر أحوالها مع الأولاد، أما الثانية فقرأ الفاتحة وسيعقد عليها بعد قضاء مدتها وخروجها، سيعقد عليها من سجنه لأن مدته أطول بكثير، قال إنه أمضى ستة شهور فى سجن القناطر، هناك سجن الرجال مواجه لسجن النساء، تعرف إلى حضورها عبر النافذة، كان يبذل المجهود ليتسلق حتى يتعلق بقضبان النافذة التى تظل مفتوحة صيفا وشتاءً، عندما لمحها تنشر قطعة من ثيابها خلال قضبان نافذتها، كاد يرتجف من الحمى، رغم المسافة، ورغم أنها لم تكن تقيم بمفردها، إنما مع ثلاث فإنه لم يخطئها قط، كانت تصل إلى النافذة بوقوفها على راحتى زميلتيها المتشابكتين، ولأنها ممتلئة كالبطة المعتنى بها جيداً فلم تقض وقتًا طويلاً كل مرة تظهر فيها، لكن طلة منها تكفى، قال إن خيال المرأة فى الحبس يرطب الدنيا وما فيها، بلغ من تعلقه بها، أنها عندما تشرع فى الوصول إلى النافذة يستيقظ إذا كان نائمًا ولو فى أعمق نوم، ولو أنه صاح يغمره حضورها حتى لتملأ عليه الدنيا وما فيها، أحيانًا تبدو فى الليل فلا يرى إلا ظلالها المتداخلة مع القضبان وموجودات أخرى. عبر تلك الظلال عرف حلاوة وذاق الهنا، . فى الليل أيضًا قرآ الفاتحة عبر الفراغ بصوت مرتفع، وعندما فرغا تعالت الزغاريد من النوافذ المسورة الضيقة، والتهانى من الرجال، والدعاء بالذرية الحلال.

نوافذ السفر

يعيننى المكان الذى يأوينى فى ترحالى، خلال إقامتى العابرة، خاصة تلك الديار التى يداخلنى يقين أننى لن أبلغها مرة أخرى، سواء كانت داخل مصر أو خارجها، بمجرد وصولى إلى غرفة فندق هنا أو هناك، أول ما أقدم عليه إزاحة الستائر، التطلع من النافذة، يهمنى جدا النظر إلى ما يوجد خارج الحيز الضيق الذى سأقضى فيه وقتا محدودا، لا أدرى إن كنت سأدع فيه أثرا منى أم لا؟

حتى الثامنة عشرة لم أعرف السفر إلا بصحبة الأهل، عدا مرتين، الأولى اتجهت فيها شمالا إلى بحر إسكندرية الذى رأيته لأول مرة وكنت ضمن فريق الفتوة الذى نتلقى فيه تدريبات عسكرية، كان لباسنا رمادى اللون. وأحذيتنا عسكرية ثقيلة، والسلاح الذى تدربنا عليه بنادق من طراز لى انفيلد الإنجليزية، أظنها من مخلفات الحرب العالمية وربما الأولى، أقمت فى خيمة، نوافذها مجرد فتحات للتهوية لم يكن ممكنا رؤية أى تفاصيل لأن قماشا آخر كان ينسدل لمنع الرياح والأتربة، المرة الثانية عندما اتجهنا جنوبا، كنت فى الصف الثانى من المدرسة الثانوية الفنية مشتركا فى فريق الكشافة، محطتنا الأولى الأقصر، نزلنا استراحة للشباب فى البر الغربى، من النافذة رأيت جبل القرنة، البيوت المتصلة، المتجاورة، الراقدة فوق المقابر العتيقة، لم أكن ملما فى تلك الحقبة، لكننى عبر أربعين عاما تلت، أحمد الله كثيرا أننى شهدتها ورأيتها وجاهدت لأستوعب، أعود الآن إلى الأقصر، إلى القرنة، إلى معبد الدير البحرى، هابو، الرمسيوم، أقف عند تمثالى

أمنحتب الثالث، أتطلع إلى ذروة الجبل الذى صعدته مع زملائى، انتقلنا عبره من وادى الملوك إلى وادى الملكات، لا يمكننى ذلك الآن، لكننى بعد حوالى أربعين عاما أعلم ما لم أحط به بفضل ما عرفته، المعرفة مبصرة، كاشفة.

مع الانتقال وتوالى الأسفار تتحدد النوافذ، تتنوع الرؤيا بالقدر الذى تتباعد به المواضع. بعد استقرارى فى مؤسسة التعاون الإنتاجى مع بلوغى الثامنة عشرة أصبح يحق لى السفر للتفتيش على مصانع السجاد التابعة، والتى نرسل إليها التصميمات التى نقوم بإعدادها فى المقر الرئيسى بالقاهرة.

سفرى الأول كان بمثابة خَلْعة، لم أعتد الابتعاد عن البيت، خرج أبى بصحبتى إلى محطة القطار، ظل واقفا بجوار النافذة، يتطلع إلىّ ولا يتكلم، تفيض المعانى من عينيه ولا ينطق، هذا حال عرفته مع والدى، أن نتواصل بالصمت، عندما تحرك القطار بطيئا، خادعا فى البداية مشى إلى جوار العربة ابتعدت مع سريان القطار نحو انفصال راح يتسع مداه، هل أدرك أبى ذلك؟ ربما تنبئنى نظرة عينيه المستعادة بذلك بعد خلو الدنيا منه.

نزلت فندقا متواضعا فى مدينة الزقازيق، سرير مفرد ولكن دورة المياه مشتركة، عندما دخلت الحجرة سارعت إلى النافذة، فتحت مصراعى الخشب، أغلقتهما على الفور، نافذة تواجه جدارا معتما، يفصله عن الحجرة أقل من المتر، لماذا النافذةإذن؟

لابد أنه مبنى أقيم بعد بناء الفندق الذى كان أقدم، عرفت العديد من النوافذ الخلفية التى لا تطل على طريق أو ساحة، فنادق عديدة أقمت فيها طالعت من خلال نوافذها أفنية خلفية. رأيت صناديق

فارغة، ومخلفات، وألوان رمادية. فى باريس تذكرت فندق الزقازيق عندما فتحت نافذة الغرفة المريحة التى حجزها منظمو المؤتمر لى، فوجئت أننى أطل على جدار مصمت لمبنى آخر، غير أن المسافة الفاصلة فسيحة، وثمة مربعات من الخشب تتسلقها غصون من نبات لم أحدد هويته، الأوراق الخضراء كسرت حدة الجدار، فى مدينة ليبزج نزلت فندقا تتساوى نوافذه بصرامة حادة، لا تزيد نافذة أو تنقص عن الأخرى، تطل على مبنى يدير ظهره أيضا، لكن نوافذه متاحة، متساوية أيضا، البنيان من العصر الاشتراكى، نزلت هذا الفندق سنة سبع وثمانين، جئت من مدينة هاله القريبة التى كنت ضيفا على جامعتها، قابلت أمينة مكتبة الجامعة، شابة هشة، مليحة واسمها ليلى، والدهامستعرب أحب الثقافة العربية وأدبها، سمى ابنه حسن، وابنته ليلى، بدأ بينى وبينها شىء من تقارب ومودة، جاءت لتلتقى بى فى ليبزج التى يقيم فيها والدها، صحبتنى إلى الجامعة، برج مرتفع، حديث الطراز، بدا لى غريبا، دائما المرجعية عندى للقاهرة، الجامعة بقبتها الشهيرة والتى تكرست فى الذاكرة عبر الأفلام السينمائية العديدة التى صورت داخلها وحولها، جامعة ليبزج تلك مرتفعة، نوافذها صغيرة مصمتة، معظمها لا يفتح لأسباب أمنية. قالت ليلى إنها تتعلم العربية ليس اقتداء بأبيها فحسب، إنما تلك وسيلة للسفر، غير مسموح بالسفر إلا لمن تجاوز سن التقاعد أى الخامسة والستين، أصغيت دهشا، وهل تتبقى ثمالة رغبة بعد الستين فى الترحال والانتقال إلا لمن أوتى قدرة قصوى، كان الحلم بالسفر يقابلنى عند كل الذين التقيت بهم، رغم قصر المدة التى أمضيتها إلا أن حدة الحال أدركتنى وأنبأتنى باستحالة الدوام، وقد كان كذلك، استجبت لرغبة ليلى، حدثتها عن مدينتى، عن شوارعها ونيلها، وساعات العصارى فى خريفها

وشتائها، كانت تصغى وتتجه ببصرها إلى بعيد، أكدت لى أنها لو حصلت على منحة، لو نجحت مساعيها وانتهى جهدها بالنجاح، النجاح يعنى السفر، فلن تختار إلا القاهرة، كانت دقيقة جدا، سهلت لى تصوير مخطوط نادر لرسائل الحاكم بأمر الله من مقتنيات المكتبة، عرفتنى على أصدقاء لها من فيتنام، دهشت عندما أخبرتنى أنهم مهرة فى تهريب البضائع الممنوعة، وتجارة العملة، غير أننى تذكرت ما جرى لى عند وصولى إلى وارسو قبل عشر سنوات من مجيئى إلى ليبزج، أول بلد اشتراكى أقصده، بمجرد نزولى إلى الفندق الكبير فوجئت برنين الهاتف، صوت أنثوى يستفسر منى إذا كنت فى حاجة إلى رفقة.

شكرتها، فكرت فى البُنَيَّة المجرية الهيفاء، من المفروض أن تتصل بى غدا صباحا، سعيت إليها واتصلت بيننا الأسباب، أما ممارسة الجنس مقابل نقود أدفعها فلم أعد أقدر على الإقدام مهما تأججت أو شط بى الحال. عندما نزلت إلى الصالة ورآنى زميل ذو خبرة بالأسفار أقف أمام مكتب تغيير العملة، أمسك ذراعى متسائلا باستنكار عما سأقوم به؟ عندما قلت إننى أحتاج عملة محلية، وصفنى بالجنون، لا أحد يغير من البنك، الدولار له سعران، فى البنك والسوق السوداء، هل تعرف كم يبلغ؟ تطلعت إليه متسائلا، قال: سبعة أضعاف، يعنى فى البنك عشرين زولتى تساوى دولارا، خارج البنك مائة وأربعين، قلت: لكن.. هذا تخريب للاقتصاد الاشتراكى! ضحك حتى مال إلى الوراء وأنهى ضحكته بما يشبه «الشخرة». فى الواحدة ليلا «خبَّط» الباب، فوجئت بصاحب قديم. استقر به الحال فى موسكو منذ سنوات، بعد أن تزوج من روسية جاءت مبعوثة إلى مصر، يعمل مترجمًا فى الإذاعة الناطقة بالعربية، قال إنه قاد عربته أكثر من عشرين ساعة ليلتقى بنا، مجىء مثل هذا العدد من الزملاء القدامى أمر نادر

الآن، خاصة مع تردى العلاقات بين الحكومة المصرية والدول الاشتراكية، أعضاء الوفد الآخرون كلهم كبار السن، لم يشأ إزعاجهم، بمجرد وصوله قصدنى، قال:

«من كان فى مثل سنك يجب ألا ينام فى وارسو..».

خرجنا معا، قصدنا المنطقة القديمة التى دمرت تماما فى الحرب العالمية الثانية، أعيد بناؤها بالضبط كما كانت، أثناء قيادته لم يكف عن الحديث، لم يتخل عن وضعه المتحفز، المائل، كأنه على وشك القفز من قاعدة نافذة، دائما يميل متباعد الذراعين، وسط بين هيكل القردة والصورة الإنسانية، حميم البث، كأننا نستأنف حوارا بدأ منذ لحيظات قبل لقائنا.

لاحظت أنه أوقف العربة تحت علامة: «ممنوع الانتظار، نبهته فقال إن الأرقام روسية، لن يجرؤ أحد على الاقتراب أو المساس، كتمت انزعاجى، المعنى صادم لى، حتى هذه اللحظة فهمت الأممية على أنها الندية، التعامل من منطق التساوى بغض النظر عن المجد والقوة، ما يقوله صاحبى يعنى صلة بين أقوى وأضعف، بين هيمنة وخضوع، حاولت استبعاد كلمة استعمار لارتباطها بالغرب المناهض، بالرأسمالية، لكنها حامت ولم تختف، آثرت الصمت والرصد، عند دخولنا المطعم الليلى لاحظت أن صاحبى يتحدث الروسية، أعرفها بإيقاعها، وبضع كلمات علقت. قال إنه لولا الحديث بالروسية لما حصلنا على مكان بتلك السهولة، لاحظت نظرات المقموع، الكظيم فى عينى الرجل الذى كان يرتدى زيا شعبيا غلب عليه اللونان الأحمر والأزرق.

بعد أن جلسنا إلى المنضدة وأخبرنى صاحبى أنه يدعونى الليلة، إننى ضيفه، سألته:

ـ «هل يتقن كل بولندى الروسية؟».

ـ «طبعا . . إنهم يبدأون منذ التعليم الابتدائى . . ».

ـ «وهل يتقن الروس اللغة البولندية؟».

تطلع إلى متعجبا:

ـ «لا طبعا . .».

سألنى عن الأخبار، أخبار الزملاء، خاصة الذين كانوا برفقته فى المعتقل، سألته عن المكان الذى تقدم فيه مقطوعات شوبان الشهيرة فى عزف بميدان مفتوح للناس، قال إنه صباح كل أحد، أى بعد غد، قال إنه قريب من الفندق، سيصحبنى إلى هناك.

مال أكثر إلى الأمام، قلت ضاحكا: لماذا يخشى الحديث بصوت مرتفع ونحن فى مكان كلهم فيه غرباء عنا؟ قال إنه لا يثق، مثل هذه الأماكن هدف لأجهزة المخابرات، كثيرون من أفرادها يعرفون لغات شتى.

نصحنى بشراء الفرو والماس والكريستال، قال إنى عضو فى وفد رسمى ولن تفتح حقائبى. فرصة للحصول على أثمن ما فى تلك البلاد بأسعار بخسة، قال إن معطف الفرو الاستراكان لن يزيد ثمنه بالنسبة لى على ثلاثمائة وخمسين دولاراً: هل تعرف كما يساوى هذا فى باريس؟ تابع على الفور بستة آلاف، ستة آلاف دولار، قال إن معاطف المنك أرخص قليلا، يعرف تاجرا يهوديا أمينا، لا يغش فى البضاعة ويعطيه أسعارا معقولة بالقياس إلى آخرين، يمكن أن يدل على مصادر أفضل للماس أما الكريستال فأمره سهل.

لم أصارحه بانتفاء الإمكانية، لم يكن بحوزتى إلا مائة وخمسون

دولارا، لزمت الصمت حتى أعرف. ولأنه لن يصدقنى. لم أنفر منه لأسباب عديدة، منها قربى منه وراحتى إليه بقدر. لترحيبه بى أيضا، لاستكشافى أمورا لم ألم بها. كان من أنشط المعتقلين وأكثرهم حيوية وأوسعهم إلماما بما يجرى فى العالم لإتقانه خمس لغات، يكثر من إشارات يديه، فى الطريق إلى الفندق بدأ الفجر رأيت رجلا يخرج من بيت قديم الواجهة، يمشى منحنيا، عربة ترام عند منحنى نواصى فارغة يسيل عندها ضوء المصابيح متفرقا.

نصحنى باقتناء آلة تصوير روسية الصنع، عدساتها جيدة جدا من مصانع زايس المشهورة بألمانيا الشرقية. خفض صوته، قال إنه يحتفظ بواحدة جديدة بالصندوق. . فقط خمسون دولارا.

ربما رصد بخبرته عدم حماسى لحديثه عن الفرو والماس، قال إن الصحفى يجب أن يتقن التصوير. عدت بها إلى الحجرة. أصر على أن يقدم إلى حافظة أدوات بها مبارد مختلفة ومنشار صغير ومفكات من مقاسات مغايرة. قال إنها هدية منه، ثم طلب منى ألا أخبر أحدا عن مصدر الكاميرا، لأننا أصدقاء عرضها على.

عندما أغلقت باب الغرفة، أدهشنى سرعة مضى النهار، ستارة النافذة الخفيفة تمنح الضوء صفاء الحليب وقوامه، أدرت المقبض، نفذ إلى روحى هواء الشمال البارد ممتزجا بنصاعة الخضرة، لمحت أسقف البيوت المنخفضة تتوالى فى ثبات وتموج، واجهة المبنى القريب تستدعى عندى حقبة الحرب العالمية الثانية. خوذات جنود النازى، العلامات المعلقة إلى صدورهم، المرجعية الكامنة أفلام رأيتها، صور قديمة مجلات وكتب، عبر النافذة رأيت الصحراء النائية، معتقل الواحات، عرفته بالسمع عندما بدأت أعلم ما يصل من أنباء المعتقلين

وأحوالهم وما جرى لهم خاصة اليساريين منهم، ولأننى كنت أدنو من صفوفهم توقعت اللحاق بهم، طوال الأعوام الستة بدءا من سنة ستين وحتى اقتحام بيتى فجرا فى التاسع من أكتوبر سنة ست وستين، أتوقع اللحظة، كثيرا ما أصغيت إلى القول الشائع: «وقوع البلاء ولا انتظاره» لم أعرف معناه إلا لحظة اقتحام بيتنا الصغير فى درب الطبلاوى فجرا، وركوب عربة رمادية محاطا بحارسين يرتديان الملابس المدنية. عندئذ تلاشى خوفى من لحظة القبض، انتقل إلى توقع التعذيب، بعد استدعائى من الزنزانة الانفرادية إلى زنزانة التحقيق معصوب العينين، بعد الصفع والركل ودفعى إلى الجرى حتى يقع الاصطدام بجدار أو درجة سلم، بعد السؤال والسؤال، الانتقال من التهذيب إلى الخشونة ثم السب فالصفح والأمر وبإعادة العصابة إلى عينى، بعد دفعى إلى داخل الزنزانة وإغلاقها علىّ غمرنى فرح حتى إننى حركت أعضائى المتورمة، الموجوعة، بمنطق الرفض والتحدى، لحظة زال فيها أى توقع، الأفظع من التعذيب انتظاره أو الإصغاء إلى أصوات المتألمين بالجلد أو الركل أو المس الكهربائى.

فى عنبر معتقل طرة كثيرا ما كنت أرقب زملائى فى الحبس يروحون ويجيئون، عندئذ يخطر لى السؤال: أين سيكون كل منا بعد عشر سنوات؟ وما كل السنوات التى توالت، ومقدارها ست وثلاثون، حتى وقت تدوينى هذا إلا مدة تستغرقها الإجابة عن هذا الاستفسار.

هل كان صاحبى الذى جاء من موسكو إلى وارسو ليرانا ويصحبنا يتخيل أو يتوقع أثناء قضائه مدة الحبس فى الصحراء الغربية أنه سوف يستقر فى موسكو ما تبقى له، كذلك الرجل الذى جاء من هلسنكى حيث يعمل فى مجلس السلام العالمى الذى نظم مؤتمر وارسو، سمعت باسمه وذلك لقائى الأول به والأخير، فلم أره حتى الآن، ولا أعرف

إذا كان مازال حيا يسعى أم أنه قضى؟ ما بقى منه عندى معطفه الصوف، غريب اللون، إذ كان من الصعب تحديد الدرجة، هل تمت إلى الأحمر أو الأخضر؟ كذلك إطراقه مع الميل قليلا، لسبب ما يذكرنى بصورة نادرة لفلاديمير إيليتش لينين فى المنفى، عبر تلك الطلة الصباحية استعدت هيئة وحضور وأحوال أول من قابلته خارجا من المعتقل، كان ذلك عام اثنين وستين، كان يمت بصلة قرابة إلى صاحب حميم يصغرنى بسنة واحدة، كنا نتطلع إليه معجبين، بل منبهرين، هكذا نظرتنا إلى هذا القادم من وراء الأسوار، حدثنا عن الزملاء والدفعة عند بدء حفلات الاستقبال أى التعذيب، وتنظيم الحياة العامة للمعتقلين، كان واسع العينين، ناعم الشعر، يكثر من التمارين الرياضية، قوى التكوين، قال إن المناضل الشيوعى يجب أن يكون قوى المظهر، مهابا، يملأ العيون، لأنه طليعة الطبقة العاملة، والطليعة يجب أن تكون مثالا فى كل شىء، إنه ملتزم حتى عندما يكون بمفرده، عند المشى لا يحيد ببصره يمينا أو شمالا، يجب أن يكون مرفوع الهامة، يجب أن يسارع إلى نجدة الضعيف وأن يتصدى لأى بورجوازى حقير. كان يتحمس عند ذكر الطبقة العاملة، وإذا أراد تأكيد شىء ما يقسم قائلا: «بشرفى كشيوعى»، ولم ألتق فيما بعد بمن سمعته يقسم مثله، عندما أصغى صاحب يكبرنى بثلاثة أعوام إلى حديثى عنه وحماسى له وتعاطفى معه هز رأسه ولم يجب، فى اليوم التالى قال إنه لم يشأ أن يصدمنى ولكن يجب أن أحذر منه.

كيف .. ولماذا؟

قال إنه خرج مع اثنين آخرين، هذا إفراج مريب، معظم المعتقلين هناك فى الواحات، وهذا الإفراج إما لتعاون مع الإدارة، أو لأنه وقع ورقة الاستنكار، قال إن المعتقلين والمحكوم عليهم يتعرضون لظروف

نفسية قاسية قوامها التجويع والضغط والتعذيب البدنى والنفسى . وبين الحين والآخر تعرض الإدارة على بعضهم توقيع رسالة أو بيان مضمونه أن المعنى يستنكر اعتناقه للماركسية ويعلن توبته، مقابل ذلك يتم الإفراج عنه، قال إن بعض هؤلاء يتم تجنيدهم للعمل، ويصبحون عملاء لإدارة المباحث العامة، فى مقابل بعض التسهيلات العملية . صاحبنا هذا تحيط به الشكوك القوية .

لسنوات طويلة سوف تظل تلك الورقة محورا لتفكيرى، مجرد توقيع يلى بضعة سطور ويحصل المرء على حريته، يعود إلى الحياة اليومية، إلى السعى بين الناس، ولكن عدد الذين رفضوا، أكثر من الذين وقعوا، هذا التوقيع الذى يبدو يسيرا فى الكتابة، مجرد رسم للحروف المكونة لاسم، لكنه يعنى انتقال المرء من حال إلى حال، فقدانه ما لا يرى، وهذا أوعر من المحسوس، فيما بعد عرفت إيمان المصريين القدماء بقوة للاسم، الاسم معادل لوجود الشخص فإذا محاه أحدهم بعد موته فإن هذا يعنى إفناء الوجود فى اللاوجود، بل إن اسمًا ما ربما يضفى على صاحبه ملامح خاصة وحضورا ذا صفة، مجرد كتابة التوقيع ينقل المرء من حال إلى حال. كلا الجانبين يدركان جوهر الأمر، سواء المعتقلين أو الأجهزة المكلفة بعقابهم وترويضهم وتصفيتهم .

غير أن مسببات الدهشة من الأمور البديهية تدركنى مهما تقدمت بى الأيام أو تقدمت بها، ربما يرجع هذا إلى سذاجة كامنة، أو قلة خبرة بالواقع المعاش متمكنة، أو حدية فى الرؤية لا ترى إلا الألوان مفروزة مفسرة ولا تلم بمساحات تتداخل فيها وتتغير مكونات كل منها الأصلية بحيث يكون الناتج مغايرا تماما لأصل العناصر التى تشكله .

فى مستهل اليوم الأول بمعتقل طرة همس زميل ممن عرفتهم وكنت

وثيق الصلة بهم أن أحذر فى حديثى وما أفضى به، فبعض الزملاء على صلة بالإدارة، تطلعت إليه متعجبا، قال إن بعضاً ممن اعتقلوا معنا لهم صلات مشبوهة وهم بيننا يرصدون ما نقوله وعلاقاتنا قبل بدء التحقيق، ما يريدون التوصل إليه معرفة أى معلومات عن التنظيم وعلاقة كل منا به، ابتسم قائلا: طبعا أريدك أن تتحمل كل ما ستتعرض له، الاعتراف يعنى اكتمال أركان قضية ربما تبلغ الأحكام فيها عشر أو خمس عشرة سنة.

ما شغلنى هذا اليوم وما تلا ذلك هؤلاء الرفاق المباحث، كيف يقيمون بيننا ويقاسون ما نقاسى لكى يخبروا عن كل كبيرة وصغيرة؟! ماذا يجنون من وراء ذلك؟! غير أن ذلك لم يكن مصدر عجبى الوحيد، فى العنبر المخصص للشيوعيين كان يقيم منذ عام خمسة عشر مناضلا من القدامى، معظمهم من ا لقيادات العمالية، أى من الذين التحقوا بالحركة من موقع الطبقة وليس بحكم القراءة والاشتغال بالثقافة، عرفت منهم منصور، كان فاره الطول، ومتين البنية، له سمت ابن البلد، عمل فى تجليد الكتب ثم احترف العمل الحزبى، ولسنوات كان مسئولاً عن المطبعة السرية للتنظيم الذى انتمى إليه وأخلص، كان يتصرف كأنه سيقضى ما تبقى من عمره فى الحبس، وكأنه أمضى ما سبق من سنوات حياته فى هذا المعتقل النائى، البعيد عن العمران وقتئذ بعد العديد من معسكرات الشرطة والجيش، لخبرته وحنكته وقع اختيارنا عليه ليمثلنا عند إدارة المعتقل، لماذا جاء منصور ورفاقه الأربعة عشرة؟

لأنهم اعترضوا على قرار حل التنظيم ودخول الاتحاد الاشتراكى فرادى وقتئذ، هذا ما قررته القيادات التاريخية لعدد من التنظيمات الكبرى، سمعت ذلك فى حينه، نشر خبر موجز بالأهرام حول القرار

الذى اتخذته قيادات ما يسمى بالحزب الشيوعى المصرى، والحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى، غير أن بعض الزملاء فى المستويات القيادية اعترضوا على الحل، وسرعان ما تم اعتقالهم، كيف علمت المباحث العامة وقتئذ؟ قيل إن بعض الزملاء من وثيقى الصلة أبلغوا أسماءهم، هكذا نزل منصور وصحبه مرة أخرى بمعتقل طرة، بقى فى الساحة تنظيم أو اثنان اعتبرا صغيرين، متطرفين، رفضا الحل وأعلنا استمرار العمل، التنظيم الذى اتهمت بالانضمام إليه، كان اسمه وحدة الشيوعيين، والعجيب أن معظم الذين تم اعتقالهم فجرا فى ذلك الفجر الأكتوبرى لم يكن لهم علاقة حقيقية به عند الاعتقال، بعضهم كانت له صلات قديمة ترجع إلى الخمسينات، وآخرون انضموا إليه زمنا وتركوه لأسباب كتمتها عقودا حتى لا أضر القضية، إلى أن راحت القضية وانتهى الأمر كله إلى ما انتهى إليه بدءا من تسعينات القرن الماضى. كيف وصلت أسماؤنا إلى مكتب مكافحة الشيوعية وقتئذ؟

لهذا تفصيل يبدو طريفا الآن، باعثا على البسمة الممتزجة بالحسرة بعد مرور ما يقرب من أربعة عقود. كان أحد أصحاب العلاقة يهوى الكتابة، يقرأ فى الندوات قصصا بالعامية، مكتوبة من ألفها إلى يائها بالعامية، كان بدينا، دمياطيا، حدث أنه شرع فى الزواج من بنية جميلة، يخيل إلى أننى رأيتها بصحبته مرة فى مقهى لم يعد موجودا الآن أمام سينما راديو بوسط المدينة، أو ربما لكثرة ما تردد خبرها على مسمعى صار لها تجسيد فى مخيلتى. حتى يتم اقترانه بها كان لابد من تدبير مائة وخمسين جنيها، منذ أربعة عقود كان مثل هذا المبلغ يفى بنفقات زواج، يبدو أن أمر «زنقته» وصل إلى قريب له يعمل ضابطا بالمباحث العامة، أو تطوع هو لإفشاء أمر صحبه، أبلغ أسماء من يعرف بانضمامهم إلى التنظيم ومن ضمن أنهم على صلة، هكذا أدرجت

قائمة حوت اسمي، كيف علم بعضنا بما فعل؟ لا أدرى، لكن ما أثق منه أن كل من أدرج اسمه بعد فعلة هذا الدمياطى أحيط علما: المهم.. أنه اختفى تماما، لم يعد يظهر فى ندوة أو أى مقهى مما اعتدنا التردد عليهما، حتى قرأت اسمه فى صفحة الوفيات فى الثمانينات، غاب عنا أثره تماما، خاصة أن من ضمهم هذا العنبر مدة تفرقوا فى الحياة، قضى منهم من قضى، وتبدل من تبدل وغاب من غاب، وهذا مما يطول شرحه، ولهذا حيز آخر ربما يدخل ضمن اهتمامى بتبدل المصائر وهذا أمر متأصل عندى، ما أريد الإشارة إليه والتنبيه أن أصعب الأوقات يتبقى منها ما يثير السخرية بعد انقضائها أو يبيد منها مما تأبى الذاكرة الاحتفاظ به، ومن ذلك دهشتى لأننى لم أر أى عنصر يمت إلى أيام سجنى فى أحلامى، هذا ما أثق منه، غير أننى أعى لحظات عديدة، بعضها عابر، وبعضها يقيم مقدارا من الوقت ثم ينزوى.

عند وصول معتقلين جدد يجرى إدخال القدامى إلى العنابر والزنازين وإغلاقها حتى يتم تسكين «الإيراد» الجديد، سمعنا ضجة فتح الأبواب الحديدية، إيلاج المفاتيح الضخمة واصطكاك بعضها ببعض، يتملكنا فضول فلا نطيق الانتظار، يقف اثنان تحت النافذة المرتفعة عن الأرض، تتعانق أصابع يديهما، فوقها يقف زميل طوله مناسب ليتطلع عبر القضبان.

عندما نزل لينبئنا بدا غير مصدق، قال إنه رأى من يرتدون فاخر الملابس، أحدهم يلبس الروب دى شامبر الذى نراه فى السينما، آخر يدخن سيجارا كوبيا، لم نصدق، غير أنه أقسم، بعد أن فتحت الأبواب أتيح لنا أن نرى، بل أن نتحدث إليهم، كان التحقيق قد انتهى معهم فى كوبرى القبة، أى فى مبنى المخابرات العامة، وهذا يعنى حساسية الموضوع واتصاله بالخارج، المتهم الرئيسى محام شهير، بعد

الفراغ من هؤلاء، ثم نقلهم إلى معتقل المزرعة حيث نقيم لتبدأ مرحلة انتظار قد تطول أو تقصر، كان أحدهم يشبه الممثل سراج منير الذى يؤدى أدوار الباشوات، وكان أقصرهم يرتدى بيجامة من الحرير منقوشة بوحدات مستوحاة من ثمرة الكمثرى، معروفة فى زخارف السجاد بطراز كشمير، بدا أكثرهم حزنا وضيقا، علمت أنه رقى إلى درجة وكيل وزارة، وفى اليوم الأول لممارسة مهام عمله قبض عليه، كان يردد بأسى: «مستقبلى راح . . مستقبلى راح». أما مدخن السيجار فكان يمشى متمهلا، ويتطلع إلى الخلق من فوق، لم نشعر ناحيتهم بود، ولم تتصل بيننا الصلات كما امتدت بيننا وبين الوفديين القدامى الذين اعتقلوا لاشتراكهم فى تشييع جنازة مصطفى النحاس باشا وترديدهم الهتافات: «لا زعيم بعدك يا نحاس» أمضوا فى الحبس ستة وعشرين شهرا، ولم يفرج عنهم إلا بعد ما جرى فى يونيو سنة سبع وستين، كان المعتقلون الجدد متنافرين وإن حرصوا على إظهار عكس ذلك، كان كل منهم يخاطب الآخر باسمه ويضيف إليه لقب «بك» وكان ذلك نادرا فى تلك الحقبة، ولم نسمع ذلك بين الوفديين، بعد أربعة أو خمسة أيام من وصولهم استيقظنا على شجار حاد، أصوات السادة من زنزانتهم التى تقع فى مواجهة عنبرنا،

ـ «اخرس يا محمد . . بك . .».

ـ «أنا لن أسمح لك يا سمير . . بك».

ـ «أنت حقير يا . . بك . .».

ـ «معلون . . يا . . بك . .».

أعقب ذلك أصوات لكمات وخبطات ثم ارتفع صوت أحدهما معولا كالنساء، ولسنوات ظللت أروى هذه الواقعة متندرا بذلك

السباب الذى فاه به كل منهما مقترنا بلقب بك وصوت هذا العويل المفاجئ الحاد، الذى لم أعرف حتى الآن مصدره، وإن داخلنى يقين أنه ذلك الرجل الذى لم يمض فى منصب وكيل الوزارة إلا يوما واحدا.

بعد حوالى عشر سنوات من خروجى قابلت أول من عرفته بعد الإفراج عنه، كان محتفظا بقوامه الرياضى، مواظبا على التمرينات حتى لا يترهل كما أخبرنى، علمت أنه دخل عالم السينما، ولم أعرف من أى باب بالضبط فلم أكن حريصا على مد الحديث معه بعد يقينى أنه وقع الورقة ليخرج، وربما تورط فى أمور أخرى، آخر مرة رأيته فى برنامج تليفزيونى عنوانه: «الكاميرا الخفية»، كان يقف ثابتا بين تمثالين فى المتحف الزراعى لفلاح وفلاحة، كان يجثو على ركبتيه مرتديا الجلباب البلدى والطاقية، حتى إذا توقف أمامه البعض فاجأهم بالحركة وهنا تركز الكاميرا عليهم لتسجيل ردود الفعل، لم ألتق به ولم أهتم بمعرفة ما صار إليه رغم تتبعى أخبار وأحوال آخرين، الغريب أن ملامح بعض البشر ممن أمضيت معهم شهورا غابت عنى تماما، بينما يمكننى الآن رؤية ملامح ذلك العصفور الذى كان يأتى فى ميقات معلوم عند اقتراب الأصيل، أشد لحظات الحبس الانفرادى فى معتقل القلعة حزنا وإيلاما، كنت أتمدد فوق الأرض الرطبة منتظرا حدث ظهوره، كانت النافذة قرب السقف، يستحيل على مفرد مثلى تسلق الجدار الأملس الخالى من أى بروز والتطلع منها، من خلالها كان ممكنا رؤية مساحة ضئيلة من السماء، عبرها ألممت بألوان الزرقة ودرجاتها فى أوقات النهار المختلفة، ولمحت مرتين غمامة. كان العصفور يحط على الحافة من الخارج، أحيانا يتطلع إلى داخل الزنزانة، نظرة جانبية تضفى على فراغى معنى وحركة، أربعون يوما أمضيتها بمفردى، لم يتخلف هذا العصفور عن ميقاته، ولم يتجاوز القضبان إلى الداخل

قط، رغم أن الفرجات بينها كانت تمكنه من ذلك، أذكر نظرته وطلته فلا يمكنني القطع الآن بتذكر عصفور بعينه، أم أنني أستعيد جنسا من العصافير على إطلاقه؟، لو أعرف اسمه لما ترددت ولما تساءلت، أحيانا يمنح اسم الجنس ذات الصفات التي يمنحها اسم الفرد، فعندما أقول هذا كناريا، إنما أخصص مع أنني أعمم، فالكناريا اسم النوع من الطيور، فكل مفرد منه كناريا، ومع صيغة الجمع كناريا أيضا، وسواء في حالة الواحد أو النوع أي العدد فالاسم يضفي صفات تخصص وتحدد، أما جهلي باسم هذا العصفور بالتحديد فوجوبي لعدم قدرتي على الإلمام بلغة الطير، وقد رأيت في ترحالي من يتقنها، جرى ذلك في مراكش، حيث يتوارث قوم أسرار لغة الحسون الذي يأتي المدينة مهاجرا في الشتاء، أصغيت إلى الحوار العجيب، لكن البشر لم يفصحوا قط عن مضمونه.

لماذا يستدعي مجيء هذا العصفور إلى نافذة الزنزانة تلك اللحظة من الليل الروسي، عندما وصلت إلى فندق أوكرانيا ليلا في الحادية عشرة بدأت طقوس الوصول، التعرف على المكان الذي سأتمدد فيه، وأغتسل، وأجلس للراحة أو التأمل، فتح الحقيبة، ترتيب الحاجات، القمصان، الملابس الداخلية، الكتب، دفتر الملاحظات على مقربة، خطوات قصيرة الهدف منها إضفاء خصوصيتي على المكان الذي يقيم به العابرون مددا طالت أو قصرت لكنها سرعان ما تمضي، ألقي نظرة على ما رتبت ثم أتجه إلى النافذة لأتعرف على ما أطل عليه.

نافذة مستطيلة، إطارها الخشبي عتيق، زجاج مزدوج، ستارة ثقيلة تحجب الضوء تماما وأخرى خفيفة، كل ما في الغرفة يذكرني بستالين، بحقيبته، بشاربه، بنظرته الراسخة، المتجهة إلى بعيد وياقته

العسكرية المرتفعة، ربما لأن المبنى الضخم شيد فى زمنه، عمار الجبروت، تفح قوة، أحد سبعة مبان أقيمت فى موسكو بعد الحرب الثانية، الغريب أننى عندما نزلت الولايات المتحدة ورأيت المبانى هائلة الارتفاع، خاصة فى العاصمة واشنطن رصدت عناصر الشبه، عمارة استعراض القوة، الواجهات الصماء، الحادة والتى لا تخفف من جهامتها عشرات النوافذ، بل إنها عنصر لزيادة البث الماضى على إخضاع من ينظر ويرى، وبث الهيبة فى قلبه، تقع غرفتى فى الطابق السابع تقريبا، لا أدرى هل الأرضى محسوب أم لا؟

شوارع موسكو عريضة، يمر بها الترام والتروللى باص، والعربات والحافلات وثمة ممر لسيارات الدولة والحزب السوداء مسدلة الستائر، رغم دخول شهر مايو إلا أن البرد ما زال قارسا بالنسبة لى، والرياح تمر بسرعة خاطفة عبر الطرق الفسيحة، لم أر إلا العربات المارقة، يخلو الطريق تماما من المارة.

فجأة . . ظهر . .

رجل منحن، يرتدى قبعة، يد فى جيبه، اليد الأخرى بعيدة عن جسده، كأنها تتقدمه، يقطع الطريق متمهلا، مطرقا، غير متطلع إلى يمنة أو يسرة، ظله وراءه، أحيانا يجاوره، أحيانا ينتقل أمامه طبقا لمصدر الضوء، راح يتقدم عبر نهر الطريق المتسع، الفسيح، علق بصرى به، رؤية إنسان وحيد فى مدينة هائلة التكوينات أمر فريد، غريب عندى، مثير لغوامض تستعصى على التفسير.

من؟ ما اسمه؟ ما كنيته؟ من أين وإلى أين؟ لماذا لم يلتفت إلى مصادر العربات والحافلات المقبلة؟ واضح أنه يتقدم بدون أن يعبأ، هل يعرف من أين جاء وإلى أين؟، هل يعى مقصده؟

تابعت حركة ظله، علق عندى أكثر من الأصل، بل فى لحيظات اندمجا فلم أعد قادرا على التمييز بين الأصل والظل، أحيانا أستعيد وعيى الطفولى الأول، عندما كنت أؤنسن الموجودات كافة، فالجدران تتحدث إلى بعضها رغم جمادها، والنخلة توشوش للنخلة، والنافذة ترمق الشرفة وربما يتخاصمان، للأحجار لغة غامضة، وللنجوم هسيس يبلغ أعماق الأرض، هكذا رأيت المبانى الضخمة، المحدقة بالعابر، المندمجة بالليل، المدثرة بإضاءة الطريق الخافتة، الخالى من أى إعلان مضىء كأن تلك العناصر كافة تتطلع إلى الرجل الغريب عنى، المجهول بالنسبة لى، وثمة إشفاق أو حنو فى الواجهات والأفاريز، وخشية تسيل من النوافذ المتشابهة حجما وطرازا، لا أستعيد تلك اللحظات إلا ويدفق عندى ذلك الإشفاق، ويمتد مباشرة إلى العصفور الشارد عن سربه والذى اعتاد تلك الحافة من نافذة الزنزانة العلوية، المعزولة . . فى طريق عودتى من المكسيك نزلت مدينة نيويورك عدة سويعات، فى المطار انتظرنى صاحب حميم رافقته فى سيارته إلى شوارع المدينة، عند عودتنا إلى المطارتوقفنا مع ظهور الضوء الأحمر، نافذة عربة فى محاذاتنا، تتطلع إلىّ أنثى شابة مقبلة على الدنيا أو الدنيا تغمرها بكرمها وفيضها، أصابعها تلمس المقود فى حركة راقصة، لابد أنها تدندن لحنا ما، تبادلنا النظر للمحة، ثم تعانقنا بالبصر، حدث أن تجاذبنا فصرت إليها بالكلية وجاءت إلىّ من كافة الجهات والدليل أنها عندى حتى لحظة تدوينى هذا. بل إننى أدرجت التفاتها صوبى بين اللحيظات المتبقية، المتوارية، المباغتة فى الظهور، والتى يمكن أن أشهدها فى اللحيظات المتبقية قبل الانتقال من الوجود إلى اللاوجود، تشغلنى تلك اللمحة النهائية، مفترضًا، متوقعًا أننى سأكون خلالها قادراً على الاستعادة والفحص، قرأت ولا أدرى أين عن إشراقة

مفاجئة. عند دنو الأجل يرى الإنسان خلالها فى جزء من الثانية كافة ما كان وما جرى، كل ما مر به، أدق التفاصيل، أعقدها، ثمة غدة كامنة لا تعمل إلا قبل تمام الفترة، تشغلنى لحيظة الإشراقة تلك التى تفتح خلالها نافذة، طاقة لا يمكن تعيينها أو تأطيرها بمكان أو حيز. أتخيل حلولها واستحالة استعادتها لنفاد الوقت وانقضاء المدة.

بمجرد تبدل الضوء من أحمر إلى أخضر وثبت، راحت من مجالى، كانت ماضية على نقطة ما من الأرض، هنا فى المدينة أو بالقرب منها، وكنت متجها إلى المطار، بعد ساعتين يبدأ إقلاعى لعبور المحيط، الاتجاه شرقًا صوب الأرض التى أسعى فوقها، علق وجهها بى، طلتها، ملامحها الجانبية، رغم يقينى استحالة رؤيتها إلا أننى أتساءل: من يدلنى على سيدة أجهلها كانت تركب عربة رمادية نافذتها الجانبية عريضة، سيارة ذات بابين، أجهل طرازها، توقفت عند إشارة المرور على الطريق المؤدى إلى مطار جوزيف كيندى، بالدقة.. إحدى الإشارات. تقاطع من التقاطعات، من يدلنى على لحظة احتوت ما بقى عندى تلك الليلة من نوفمبر سنة تسع وثمانين، هل يأتى يوم يمكن فيه تحديد مضمون الرؤى العابرة بمجرد لواح الخطرات؟

أحيانًا يرى الإنسان فى أثناء الحركة السريعة ما لا يراه فى الإقامة، أقرب اللحظات لم يمض على انقضائها شهران، عندما استيقظت مبكراً فى جو صيفى حار، كنت مقيمًا فى فندق صغير، عتيق قرب وادى الملكات، رتبت الأمر مع سائق عربة أجرة يقيم فى البيت المقابل، اعتدت صحبته منذ بدء ترددى وإقامتى، كنت أقصد المطار لأصحب صديقًا حميمًا قادمًا من الغرب الأقصى مباشرة لكى نصل إلى بداية الجسر الحديث لابد من الاتجاه جنوبًا عدة كيلو مترات قبل العبور إلى الشرق حيث المطار.

لم أكف عن التطلع، محاولة استيعاب كافة ما يلج دائرة بصرى، خاصة النخيل وأشجار الدوم القليلة المتناثرة، كل ما يمت إلى عناصر الحياة التى عرفتها فى الصعيد.

ياه..

تلك الشمس..

استدارة لم أعرفها من قبل، صعود يمكننى رصده، اصفرار فريد، درجة من لون اللهيب الكونى أتعرف عليها أول مرة، لكم طالعت مغيب الشمس من القاهرة، فى المدينة الكبيرة لا أعرف إلا الغروب، توالى البيوت وتكدس المدينة يحجب الشروق عنا، أحيانا أتطلع من نافذة مكتبى، أتابع القرص الأحمر القانى، يزداد غموقًا كلما دنا وتدلى، يحجبه أحيانا غمام الشتاء أو سحابات التلوث، القريب يحوش البعيد، لكننى لم أعهد مثل هذا الاصفرار قط.

شروق صريح. واضح العبارة، طلبت من عبد الراضى أن يتوقف، هدأ سرعته، مال إلى جانب الطريق، فارقت السيارة، توالى تطلعى، انبثق من أغوارى وضع الإنسان القديم الذى كان يتطلع بكل براءة الرؤية وخلوها من التفسيرات المساعدة، صعود القرص فى تلك السماء الصافية، عبوره الهادئ بغير ضجيج، نزوله ناحية الغرب، توالى التدرجات حتى اكتمال العتمة، الفرح الأول بقدوم الشمس، ولادتها من جديد، الخشية من غروبها إلى الأبد، قبل توفيق المظاهر الكونية مع تفاصيل الحياة اليومية، وتدبير الفهم، فى مقبرة رمسيس السادس، لا تزال مشاهد كتاب الليل والنهار، كذلك فى معبد دندرة.

نوت، رمز السماء، تمتد بجسدها الأنثوى الرشيق المرصع بالنجوم من أول الجسد إلى آخره، متمددة عبر علو السقف الذى اتخذ ألوان

السماء، قدماها فى ناحية، رأسها الناحية الأخرى، أما القرص الشمسى المستدير فبازغ من موضع الفرج.

ولادة..

اكتمال..

بدأت المرحلة صوب الأفق فى قارب رع، العبور لا يكون إلا بوسيلة فإذا انعدمت رؤيتها أوجدتها مخيلة الأجداد من نفس عناصر، مفردات الحياة اليومية، كم دورة فلك استغرقها ذلك التأمل حتى الوصول إلى هذا التصور الذى ما زال غالبًا؟ كم المدة التى صوب فيها بصر الأقدمين حتى تمثل منازل الأبراج ورسمها واضحة مكتملة فى سقف حجرة متوارية بمعبد دندرة، انتزعها شامبليون ونقلها إلى فرنسا، لا أنزل باريس إلا وأزور مرقد الزودياك فى ركن متوار من متحف اللوفر، أتقن الوصول إليه فى أقصر وقت، كم تطلع جرى مثل شخوصى إلى تلك الاستدارة وذلك الصعود المدرك بالحس، بعد دقائق عدت إلى العربة، لو تأخرت سيخرج صاحبى فلن يجدنى، يجهل العنوان ربما فقدته.

«عرفت.. عرفت..».

بنظرة جانبية طالعنى عبد الراضى، لم يستفسر، يلزم الصمت تمامًا إلا إذا سألته فيجيب بقدر، طويل القامة، أسمر، ملامحه منحوتة، واضحة، عند عبورنا الجسر رأيت الشمس مرتفعة أكثر، فارقت موضعها الذى رأيتها فيه، تغير الأصفر المشوب بخضرة شاحبة، أو مس من زرقة، لا أدرى بالضبط، لا يمكننى التحديد، رغم ذلك كنت موقنًا أننى عرفت ما لم أعرفه رغم انتفاء قدرتى على الإيضاح.

فى اليوم التالى استيقظت فى الموعد عينه، فارقت البيت إلى الطريق المؤدى صوب النهر، مشيت حتى تمثالى ممنون، الشرق باد، الأفق واضح، لكن الشمس مغايرة، ليست تلك التى رأيتها أمس، رأيتها مرات عديدة فيما تلا ذلك من أيام، لكن الحضور فى كل شروق مغاير لما طالعته أول مرة، خاصة اللون المماثل فى ذاكرتى، المفتقد فى الواقع . .

الرؤية من مكان بعينه مؤطر، محدد، جالبة للألفة، بعكس المشاهدة من إطار متحرك، خلالها يرى البصر ولا يرى، عند جلوسى إلى جوار نافذة فى القطار، بدءًا من قطار الصعيد الذى عرفته طفلاً، حتى قطارات السرعة الفائقة فى أوروبا، فصلت ذلك فى دفتر التدوين المعنون «دنا فتدلى». عبر تلك النوافذ تقع عيناى على المرئيات ولا تقع، لا أتمكن منها، الموجودات القريبة من المتحرك تتراجع بسرعة، وتلك النائية تبدو حركتها أبطأ لكن لا يمكن إدراك تفاصيلها، كذلك ما أراه عبر نوافذ الطائرات المستديرة، الضيقة، فراغات، سحب، ملامح أراض، مدن لا أعرف أسماءها موجودة وغير موجودة، إدراكها تولى متوارية، أقرأ على لوحة البيانات أننا نعبر فوق كندا مثلاً، أو فوق ڤينيسيا أو روما، أو صحراء الهفوف، لحظة قراءتى الاسم، إدراكى المجال الذى نتحرك فيه، عبره، أعى وجودى فيه، لكن سرعان ما يكون ورائى، أحيانا أتطلع إلى السماء، من نقطة فى صحراء مدهشة، ألزم المشى فيها بعيدا عن الأحجار خشية الهوام الكامنة، أو من البحر، أو من نافذة طائرة، فأكاد أوقن أن هذا الفراغ كله ليس إلا نافذة كونية تؤدى بالبصر إلى أمر لا يمكننى القطع به، رغم وجوده ومثوله فى وعيى، لكننى غير قادر على إدراكه.



نـوافـذ الظهـور

ما بين الفندق الذى أقيم به ومدخل معبد هابو المواجه للشرق حوالى ثلاثمائة متر، تقريبا، كما أقول الفندق تجاوزا، إنه بيت قديم مبنى بالطوب اللبن، أو كما يقول الناس هنا فى القرنة، طوبة خضراء، تمييزا عن الطوب الأحمر الذى ساد خلال العقود الثلاثة الأخيرة بعد اختفاء البناء التقليدى وظهور الأسمنت، يماثل البيت الذى ولدت فيه، أوسع قليلا، أجرى محمد صاحبه تعديلات وأضفى وسائل راحة بمساعدة سيدة فرنسية لزمت المكان وأقامت مع أن مجيئها كان عابرا للسياحة لكنها أصبحت من المعالم، الغرف عددها سبع، ثلاث فى الطابق الأرضى، إضافة إلى المطعم المطل مباشرة على الساحة المظللة بالنخيل. فى الطابق العلوى أربعة، المفضلة عندى فسيحة، بها سرير من جريد النخل، ومنضدة وصوان صنعا أيضا منه، الصوان كأنه قفص دجاج يقف بالطول، مفتوح، داخله أرفف ترص عليه الثياب، أضيفت شرفة من خشب تطل على نخلتين، إحداهما محاذية للسور، أمد يدى وأقطف البلح جالسا، إذا واجهت الشرق يمكننى رؤية تمثال أمنحتب الثالث، أو ممنون كما عرفا منذ العصر الرومانى، الأرض الممتدة النابت فيها العشب وشجيرات قصيرة وبداية نخلات قصار قام فوقها معبده المهيب. والتمثالان يقومان أمامه، بقيا واختفى المعبد، أحجار متفرقة، بقايا يجرى الكشف عنها، إذا تطلعت غربا أواجه جبل القرنة، فوقه تتناثر بيوت ينبعث الضوء من نوافذها ليلا، مرتفع صخرى مفعم بالأسرار، يفيض قداسة، يصل ما بين وادى الملوك،

ودير المدينة حيث الفنانون الذين نحتوا ورسموا ولونوا نهر وادى الملكات، عند الأصيل أخرج إلى الشرفة، أسبح فى انبعاثات أشجار النخيل الخفية وأسدد البصر إلى الغرب، أتابع تحولات الضوء حتى يتم الغروب، خلال السنوات السبع الأخيرة اعتدت التردد مرتين على الأقل، فى كل زيارة أمدد الإقامة حتى إننى شرعت فى ترتيب العدة بمجرد تقاعدى لإقامة دائمة إذا توافقت الأوضاع، بدأ ذلك بعد انتهاء نقاهة كان لابد منها بعد عملية جراحية فصلت أمرها فى غير هذا التدوين، خلالها دنوت ورجعت!

لا أجىء إلا صيفا، ذروة الحر، يونيو، أى بؤونة، يدهش صحبى، المعتاد أن يكون الاتجاه شمالا، صوب البحر، إلى النسمات الرطبة الطرية، قصدى الانفراد بما أرغب رؤيته بعيدا عن ضجيج السياحة والسائحين، ذروة موسمهم فى الشتاء، البعض يجيئون صيفا لكنهم قلة، سبب آخر ربما يعود إلى بدايات العمر، إذ اعتدنا الاتجاه جنوبا، السفر صيفا إلى جهينة لنمضى شهور الصيف، استمر ذلك حتى بلوغى الرابعة عشرة ثم تقطعت الأسباب، غير أن الحنين إلى البدايات وكل ما ارتبط بالطفرة الأولى يلوح مع اقتراب طرفى الدائرة من بعضهما، هكذا يكون الشوق إلى بدايات، إلى لحيظات، إلى أنواع من الطعام، الى وجهات. ربما يعى الإنسان وقد لا ينبئه إلى دوافعه، بالنسبة لى أحاول التفسير.

أحد مصادر راحتى، لواح سعف النخيل من النافذة المحاذية للفراش، إذا خبت رياح خفيفة أو عفية ليلا يوشوشنى تلامس السعف، وإذا بدأ بزوغ الضوء أتطلع من مرقدى إلى ذرا النخلة القريبة، أئتنس بها، ويمهد الظهور للطواف بالمراحل رغم حدة الضوء وسطوع النهار قبل تمام الشروق.

فى كل زيارة أخصصها لهدف بعينه، هذه المرة جئت إلى هابو، معبد رمسيس الثالث، يسميه البعض مدينة هابو، ربما لضخامته واتضاح معالمه، بدءا من أجزاء السور المبنى من الطوب اللبن المتبقية وحتى الحجرات النهائية، حيث صور الآلهة المتبقية، وأماكن التماثيل المقدسة والرموز الحافظة، جئت إليه منذ واحد وأربعين عاما، جرى ذلك سنة واحد وستين من القرن الماضى، عندما كانت الرحلة إلى الجنوب إجبارية، خاصة لمن انضم إلى النشاط الكشفى مثلى، قطعنا المراحل سيرا على الأقدام منذ نزولنا محطة قطار الأقصر، كانت المرة الأولى التى أوغل فيها جنوبا، جنوب جنوبى المعتاد والذى ينتهى عند طهطا. المدينة التى يتوقف عندها قطار الثامنة صباحا. ومنها نبدأ المرحلة الأخيرة إلى جهينة، عندما تجاوز القطار محطة سوهاج، بدأت أتعرف على مراكز لم أسمع بها إلا نادرا. مثل جرجا والبلينا، نجع حمادى، دشنا، لأول مرة أبغلها، ما بين محطة مصر وطهطا مراكز لطالما تلاها أبى عندما يصفو حاله ويحتويه الهفوف إلى المنبع، إلى مواضع الخطوات الأولى، رغم كل ما عاناه إلا أن استقراره فى جهينة ظل حلما ورغبة، كنت أظن جهينة عين الجنوب، وإذا بى عند بلوغى الأقصر اكتشف أننا بحرى، أننا شمال بالنسبة لمن يقيمون هنا.

مشيت من ضفة النهر إلى القرنة، إلى وادى الملوك، تسلقنا الجبل قطعنا الطريق عينه الواصل ما بين الوادى وقرية الفنانين، دير المدينة، إلى وادى الملكات، ما أذكره من مدينة هابو جدران مرتفعة عليها رسوم محفورة، أعمدة ناقصة بوابات تؤدى إلى أخرى. لا قيمة لرؤية بدون إحاطة ومعرفة، عبر السنوات الماضية حاولت، لكن عند التأهب أدع نفسى للمواجهة الأولى، لا أصحب دليلا أو مرجعا، بعد الفراغ أستعيد ما رأيت، أتوصل بنتائج أو تباغتنى إشراقات، ثم أفتح

الصفحات أتزود بعلم المتخصصين، أستفسر ممن تربطنى بهم صلة، لا أحاول أن أثقل عليهم.

فى اليوم الأول انفردت بالمكان منذ السادسة صباحا وحتى الخامسة عصرا، آخر حد الوقت المسموح بالتواجد خلاله داخل المعبد، غفوت ظهرا قرب الساحة الوسطى التى تطل عليها تماثيل أوزير، الغريب أننى على امتداد اليوم كله لم أر إلا حراس المعبد. لم يقع بصرى على زائر آخر، على غريب، فهل كنت الوحيد أم حجبهم عنى انهماكى؟

وقوفى أمام الواجهة المجدل، الشاهقة، إصغائى إلى ضجيج المعارك، البرية والبحرية منها؟ مع التدرج إلى الداخل يهدأ الصخب وتتوارى صرخات الجنود وأنين الأسرى ومشاهد المقيدين خلف ظهورهم من بدو الصحراء، وشعوب البحر، لتبدو تجليات الإله من إيزيس وأوزير وحور وحتحور وبتاح وسائر الأسماء الرامزة، الدالة على القوة الخفية المحركة والتى يرمز إليها بيدين بشريتين مرفوعتين، لا نرى الجسد الذى تنتميان إليه، تلمسان قرصا مستديراً، كروية الكون، استدارة الوجود، أما اليدان فإشارة إلى القوة الخفية، المحركة التى أعطت الدفعة الأولى ولا تزال أصداؤها. تراجعها، ما ترتب عليها يتوالى، يتدفق، لترحل الموجودات كافة من نقطة إلى نقطة.

بعد تجاوز الفناء الأول تنأى أصوات المعارك، تخفت مشاهد الحروب، يبدو الفرعون فى حياته اليومية، مع الاقتراب من الحجرات الأخيرة، حيث تمثال الإله المحفوظ تبدو مراحل السفر النهائى، المرور بالعقبات، بالبوابات الفاصلة بين ساعة وأخرى. حتى يلمس الإله أنف الفرعون بعلامة عنخ فيمنحه الحياة الأبدية، المشهد الأخير الذى يلى المثول أمام قاضى العالم الآخر. سيد الموتى المهيمن أوزير. الملك

المتوفى ممسك بعلامة عنخ، ولى فيها أقوال ليس هنا موضعها. وليس تفصيل ما اطلعت عليه أو وصف ما تأملته طويلا. لذلك مقام آخر، ما بقى عندى ذلك اليوم، ما مثل نافذة الظهور، اليوم التالى خصصته لها، لتأمل موضعها. لاستيعاب تفاصيلها، لمحاولة الوصول إلى دلالاتها، لتخيل ما كانت عليه زمن رمسيس الثالث مؤسس المعبد، لأشكر الله كثيرا على اجتيازها الأزمنة المضطربة، والفوضى، وقسوة الأحفاد الذين اعتنقوا عقائد وافدة مغايرة فسعوا إلى تدمير ما خلفه الأجداد باعتبارهم مؤمنين سلكوا الطريق الوافد القويم، وما سبقهم كان خطأ يجب تصحيحه، يمكننى القول إننى خلال تلك الإضافة لم أعرف إلا معبد هابو تحديدا، ونافذة الظهور خاصة.

الجدار الجنوبى للفناء متصل بالقصر الملكى، هذا تصفه المراجع، لكننى لا أظنه قصرا كما نفهم. إنه مكان الإقامة المرتبط بالعبادة. بأداء الطقوس، فيه يمضى الملك وقته السابق واللاحق على الاحتفال.

لماذا ناحية الجنوب؟

لماذا النافذة بالجدار القبلى؟

أظن الأمر متصلاً بالنهر، يجىء النيل من الجنوب ويتجه صوب الشمال، المصدران الرئيسيان للحياة مرتبط كل منهما بجهة الشرق للشمس وتمامه نقيضه الغرب.

الجنوب للنيل وامتداده فى شماله.

مدخل المعبد. وكل معبد فى القرنة متصل بالشمس، عندما يبدأ القرص فى البزوغ تلامس الأشعة الوافدة الصرح العريض المائل، مدخل المعبد الذى يظهر فيه تاثير أجنبى من الشمال، عندما وصلت

جيوش الفرعون إلى دجلة والفرات. إلى جبال طوروس، عادت منتصرة وفى ركابها الأسرى الأجانب، ظهرت على جدران المقابر حيوانات لم تعرفها مصر، مثل الفيلة، والزراف طويل العنق. هكذا رسم الفانون على جدران مقبرة رخميرع ما استجد، لكن ثمة جديد أشد أهمية وخطورة جاء بصحبة هذه الأسلاب وثمار التوسع. إنها الأفكار. وقد تفاعلت، وأثمرت نتاجا مر الحصاد. هذا مما يطول الحديث فيه!

يطل الملك على الفناء الداخلى من جهة الجنوب، مصدر الماء والحياة، للنافذة وما يرتبط بها منزلة خاصة ومهابة، موضعها فى المعبد، تصل ما بين الأول والآخر، ما بين مقر إقامة الملك والمعبد، تطل على الفناء الداخلى الأول حيث المشاهدون. المتطلعون من رجال الدين بمختلف طبقاتهم، الظهور لخدام الإله وليس للعامة، لذلك يجب أن يكون محفوفا بما هو غير عادى فى المسموع والمشهود والمرئى.

أسفل النافذة نحت لرءوس الأسرى المهزومين، عندما يقف الملك تكون رءوسهم تحت قدميه، وحتى يكون للظهور منزلة فلابد من احتجاب يسبقه، ويعقبه، أما ما يستغرقه فأمر محسوب، مقدر.

خلال انفرادى اجتهدت بالمخيلة فى إلغاء ما يفصلنى من زمن عن ذلك الوقت الذى كانت فيه تلك الفتحة محفوفة بكامل الهيئة. يشخص إليها الخاصة، ومنها تحل اللحظة المعنية، غير أننى لا أقدر رغم إغماض العينين ومحاولتى كامل الاستغراق.

لعلها أقدم نوافذ الظهور التى عرفها الإنسان، وحتى يكتسب الاستثنائية فلابد من احتجاب، صار ذلك عنصرا من هيبة السلطة وحيوية عنفوانها، فى الزمن الوسيط، عندما كان يكثر السلطان

المملوكى من نزوله وظهوره بين الناس، يأخذ عليه البعض ذلك، ومما ذكره ابن إياس فى مواضع مختلفة من تاريخه تلك العبارة.

«وفيه كثر نزول السلطان من القلعة فقلت هيبته لذلك..» مما تذكرته حضورى لحظة ظهور نافدرة، كان ذلك عام ثمانية وخمسين من القرن الماضى، كنت طالبا بمدرسة الحسين الإعدادية، وكان أصل اسمها «محمد على» لكن تغير ذلك خرجنا جميعا قبل انتهاء اليوم الدراسى مما يعنى كسر المألوف وتجاوز رتابة الإيقاع. مشينا مبتهجين حتى وصلنا ميدان الجمهورية (عابدين سابقا)، إنه أشبه بالفناء للقصر ومنشآته، وما يتبعه، من شرفة فى المبنى القائم جهة الشمال، مقر التنظيم السياسى الوحيد المسموح به القائم وقتئذ، الاتحاد القومى والذى أصبح فيما بعد الاتحاد الاشتراكى العربى، ثم حزب مصر، ثم الحزب الوطنى كما يدعى زمن تدوينى هذا، بعد انقضاء عامين على بدء الألفية الثالثة لميلاد سيدنا المسيح.

وقفنا بعيدا عن الشرفة. قرب رصيف الطرف الآخر من الميدان، كان الحشد كثيفا. الأعلام مرتفعة، والهتافات مدوية، عندما ارتفعت الأصوات رأيت رجالا كثيرين فى الشرفة / النافذة. إذ كان تصميمها وسط بين الاثنتين، يتوسطهم جمال عبد الناصر وشكرى القوتلى. عبر تلك الشرفة أعلن عبدالناصر ميلاد الوحدة بين مصر وسوريا. ليصبح اسم مصر الإقليم الجنوبى، وسوريا الإقليم الشمالى، ولقب شكرى القوتلى المواطن الأول. كنت أستطيع رؤية عبدالناصر ويداه إذ ترتفعان، كان حضوره قويا. نافذا إلى بعيد. بعد إلقاء خطابه ظهر محمد عبد الوهاب وأنشد مالا أذكره الآن. غير أن صوته لم يتوافق مع الموسيقى فحدث اضطراب لذلك.

فيما بعد صرت أتطلع إلى الشرفة/ النافذة، وعندما خصص المبنى لمحافظة القاهرة. قصدته يوما لمهمة ما، قبل دخولى مكتب المحافظ قصدت تلك الشرفة، عندما دخلت إليها كان أحد السعاة فى الركن المحجوب عن المارة بالداخل يأكل رغيفا ثناه على فول وبصل. قام واقفا مضطربا، عاد إلى الجلوس عندما أيقن أننى لست ممن يمكنهم إبداء الملاحظة، وقفت تقريبا فى نفس الموضع الذى أطل منه عبد الناصر، رأيت الميدان بعينيه، ولمحت موقعى عند الناحية الأخرى. انتبهت إلى اختياره لنافذة عادية ليست متصلة بمكتب معين أو مناسبة، فيما بعد أتيح لى دخول قصر عابدين والتجول فيه، رؤيته على مهل، اكتشفت نافذة للظهور ملحقة بمكتب الملك، رغم تغير الظروف فما زال يعرف بهذا الاسم، إنه المكتب الرئاسى، القصر كله تحفة فى الذوق والثقافة، يجمع ما ينتج عن اقتران الثراء بالمعرفة، لن أصف فهذا ليس قصدى، لكننى أقول إنه تقدم كافة ما عنيت، بدءا من القصور الأندلسية، المغربية، وفرساى واللوفر والأرميتاج، كما أننى لم أعرف مثيلا مقابلا لتناغم الألوان وتناسقها مع تنوع الطرز واختلافها، فى مكتب الملك لوحة زيتية رأيت صورها كثيرا، لحظة افتتاح قناة السويس، الخديو إسماعيل والجميلة أوجينى، النافذة تؤدى إلى شرفة مكشوفة مطلة على الميدان. إليها أشار سعد زغلول باشا مخاطبا الملك فؤاد أن يخرج إليها ليرى بنفسه ويسمع رأى الشعب، ربما نظر منها فاروق إلى الدبابات الإنجليزية فى الرابع من فبراير عام اثنين وأربعين، من المكتب يمكن الإصغاء إلى أصوات الشارع بسهولة، لم أتصوره بهذا القرب، لا أعى مشهدا ظهر فيه ملك أو رئيس عبر تلك النافذة أو الشرفة، عندما وقفت ذلك اليوم كنت قريبا منها. لكننى لم أستعد أمرًا ذا صلة.

حدث فى عام ستة وثمانين من القرن الماضى أن مضيت إلى مصور

فى ميدان حلوان، قرب مقر سكنى وقتئذ. كنت فى حاجة إلى عدة صور عاجلة لقضاء أمر، عندما دخلت شقة المصور فوجئت بجدار تغطيه أجزءا متلاصقة، يمكن بسهولة رؤية حدود كل جزء، لقطة من مكان مرتفع، مواجه لنافذة عبد الناصر وصحبه، رأيت الميدان كله والمبنى والحشد والشرفة، كنت أتذكر مكان وقوفى بوضوح، حددت المكان، لكن الملامح يصعب تمييزها، كانت مجرد نقاط وظلال، جزء غير باد من جمع، من حشد، التقاط صورة بهذا الحجم لم يكن سهلا بإمكانيات الوقت، كذلك طباعتها، حدثت المصور عن وقوفى، عن المجريات التى عاينتها وقدر لى أن أشهدها حدثنى عن هوايته، عن التعقيدات التى صاحبت هذا الطبع. تعجبت من ذلك.

فى بيت الأمة شرفة للظهور، رأيت صورة نادرة لسعد باشا زعيم الثورة يقف فيها محاطًا بزعماء الوفد، يخطب فى حشد من الطلبة، الشرفة لا تزال تتقدم البيت كأنها مصممة خصيصا. عندما طالعت تلك الصورة فى نهاية السبعينات، خطر لى أن كل من أراهم ماثلين بها قد رحلوا، معظمهم من شباب الثورة، أى أن أصغرهم إذا قدر له الاستمرار حتى وقتى على الأقل تجاوز التسعين بسنوات. هكذا سيفكر من يطالع الصورة الملتقطة لميدان عابدين بعد انقضاء سنوات، يكون فيها المعاصرون لإعلان الوحدة عامة والحاضرين منهم بالميدان خاصة قد تجاوزوا المدة وأنهوا الوقت.

كلما استعدت هذا النهار الصيفى، شديد الحرارة، فى الفناء الأول بمعبد هابو، ذلك الصمت فى مواجهة نافذة الظهور العتيقة، أواجه تكوينها فى لحظة من أحد أطوارها، كانت مقدسة، ثم صارت مستباحة، ونفذت من حماقات الجهلة بأعجوبة إلى أن آلت فى زماننا إلى الفرجة، لكى يراها إنسان ما لابد أن يدفع قدرا من المال. وربما يمر

بها فى صمت من لا يعرفها ومن لا ينتبه إلى معناها ومغزاها. ولو قدر لها البقاء بضع مئات من السنين لا أعرف ماذا ستصير إليه، وكيف يكون النظر إليها؟ وأى لغات سينطقها أولئك المتطلعون صوبها؟ لكن محاولة استنتاج ما سيكون لم تشغلنى كلما فاضت مخيلتى بمحاولة لاستعادة ما كان بدءا من التفاصيل المصاحبة لمراسم الظهور إلى أصوات الخواء وظلال الأطلال، ما يستحيل علىّ الإمساك به أو حتى تصوره.



نوافذ الـروح

لو آزرني الوقت وأمدتني القدرة وساعدني الأمر. سأفرد دفتراً لتدوين تلك الهواجم، البواغت، التي لم أتقن التعبير عنها، ليس عن ضعف أو قلة حيلة، إنما لحيرتي إزاءها وعجزي عن استيعابها وتبويبها، ما أكثرها، وما أضني محاولاتي لاستجماع الشتات غير أنني لا أعي إلا ارتدادي خاسئًا وحتى لا أبلغ نقطة الحرج الأتم أكف. إلا أنني لا أتوقف عن المحاولة. وجدت قبساً من العون لدى من لم ألتق بهم غير أني عرفت آثارهم؛ بعضهم معاصر، مجايل، ومعظمهم سمعوا وأتموا مددهم في أزمنة أخرى لم أبلغها، لكنهم أقرب إليّ ممن يسعون في مجال بصري أو في متناول حواسي، من هؤلاء مجهولون لي تمامًا. لم يتركوا رسمًا أو اسمًا يدل عليهم، الاسم المصاحب لمقطوعة شعر أو رسم أو نحت يحدد، يؤطر، يدل بشكل ما. لكن تلك الآثار المجهول من أبدعها تدل على آفاق وبصائر تستعصي على الحدس، فما البال بالحس.

لن أطيل. إنما أذكر من فسر لي بعضا مما استعصى عليّ، إدوارد هوبر، الأمريكي المتواجد في القرن الذي جئت فيه إلى الوجود واجتزته إلى الجديد التالي الخالي منه، لا أظن أن أمري معه كان سينقص أو يزيد لو التقيته. لو جلست إليه وسمعت منه، تمامًا مثل أولئك المجهولين تمامًا لي. الذين نقشوا مراقد الأبدية سواء لملوك مصر القدامى أو لنبلائها أو لأفراد أسرهم ولأنفسهم، في مقبرة «منا» بالجبل غربي الأقصر، رأيت تحت مقعد فوقه القرابين كلبًا يلهو بسمكة، في الساحة

الممتدة أمام البيت الذى اعتدت النزول به مدة إقامتى، استعدت التفاصيل، كل الأشكال راحت من ذاكرتى. عدا هذا الكلب والسمكة الصغيرة ومشهد آخر لثلاث راقصات يرتدين غلالات شفافة. إحداهن سمرتها غامقة، اعتدت رؤيتهن لأن المشهد طبع على ملصق إعلانى يروج للسياحة ويغرى الأجانب بالمجىء للفرجة، عندما رأيت الأصل فى الركن التحتى من الجدار دهشت أنهن أصغر مما يظهرن بالملصق. لقد اعتدت على أحجامهن المطبوعة. وكان لا بد من زيارتين حتى أنسى النسخ وأستوعب الأصل، فى الزيارة الثالثة أصغيت إلى الأنغام المصاحبة لرقصهن الإيقاعى عبر الألوان التى لا تزال ماثلة منذ أن وضعها الفنان المجهول اسمه عندى، المسموعة أنفاسه من خلال خطوطه ومساحات الأصفر والأخضر والأحمر، والمكشوف لى عمقه ودعابته من خلال وضع هذا الكلب ولهوه بالسمكة، لماذا كلب؟ ولماذا سمكة؟ هل علق المشهد بذاكرته صباح اليوم الذى قصد فيه المقبرة ليرسم جدرانها، ليحفظ بعض مشاهد الحياة اليومية خلال رحلة صاحبها الأبدية؟ . هل رأى الكلب يومًا بعيدًا فى حياته فاستعادها ودونها هنا؟ . ربما فى التقاط المشهد حذق بيِّن وسخرية دالة تعنينى وتؤكد ميثاقى!

فى الساحة بعد تمام إفطارى. رحت أتابع بالنظر صغار البط تتسابق بين الحشائش، فجأة اندفع جرو صغير، أثار عندها ذعرًا. بدا حجمه ضخمًا هائلاً بالنسبة للفراخ الصغيرة التى لم يكتمل نمو ريشها بعد. أمسك بذيل إحداها. راح يجرجرها. قمت واقفًا متأهبًا لتخليص الطائر النحيل، الصغير، غير أن أشرف ابن صاحب البيت قال ضاحكًا:

«لا تنزعج . . إنه لعب فى لعب . .».

صراخ الفرخ الحاد لعب، وقبض أسنان الجرو على المؤخرة اللينة، الهينة لعب. ربما ينحدر هذا الكلب الصغير من ذلك الذى شغلنى رسمه، لماذا ننظر فى أنساب البشر. ولا نتفحص أنساب الحيوان؟ لا أستعيد انحناءة الكلب وإمساكه بالسمكة إلا وأتوحد بالرسام المجهول، البعيد، يتنابنى مرح، وأشعر كأنه أنى.

كأنه أنى..

هذا ما أيقنت منه عند رؤيتى نوافذ هوبر، ونوافذ ماتيس الفرنسى، ونوافذ ماجريت البلجيكى، يمكننى أن أفيض وأفصل، لكننى سأقصر الأمر على هوبر، ليس لأنه الأقرب فكلهم عندى وأنا صائر، ماض إليهم، مندمج. ليس بهؤلاء الثلاثة فقط. لكن بكل من أودع عندى أثرًا، عرفته أو لم أعرفه. كل ما نفذ إلينا يصبح جزءًا منا حتى وإن لم نلتق بمصدره، بصاحبه.

لماذا إدوارد هوبر؟

ربما لتوافق رؤيته معى فى طورى الحالى وتعبيره عما لا يمكننى تحديده، إنما أنا أسيان. أحوم محاولاً إدراك الأمر الكامن بين الصلب والترائب.

ما بين البان والعلم. ما يصل الركن بالمقام. الظل بالأصل، ما يفرق الماء عن الماء. معظمها أجهله أو أجهل جهلى به. أما صحفى فمعظمها تمر طيعة والمنشور منها يذبل، يضمر، موشك.

نوافذ هوبر نوافذ وأيضًا.. ليست بنوافذ. الرائى غير المثقل بالأحمال فتحات منتظمة فى الجدران، تصل الداخل بالخارج، تضع الحدود، تؤطر الرؤية، تبدو من داخل. فراغات الحجرات، فى فندق

فى بهو، فى مكتب، فى مطعم، من عربة قطار ليلى، مماثلة من الخارج. فى الواجهات القائمة بالمدن. فى الليل. فى أصباح الآحاد، أيام العطلات الآسنة من الحركة، عندما تتوحد العمائر وتتباعد عن بعضها رغم ثبات قربها وديمومته ومثولها المقرر الذى لا يضع حدا له إلا الإزالة الهادمة. أما من عرف ما ألممت به وقطع مثل مراحلى، فسيرى المعانى الكامنة وما لا يبدو إلا مع اكتمال الفكرة ولواح المضمر.

كافة أويقات وحدتى، خاصة عند نومى أو استيقاظى. فى حجرات الفنادق التى آوتنى خلال ترحالى، كل محطاتى وما تضمنته من أحوال، بدءًا من توقى وتوثبى عند بداية أسفارى، اكتمال تأهبى لرؤية ما لا أعرفه، حتى انفرادى ونوئى بهواجس شتى فى سنواتى الأخيرة. بدءًا من خشيتى المداهمة بنوبة تلحق بى عجزًا وتنأى بى عن الديار، إلى الخوف من موت البغتة وحيدًا، بعيدًا، قصيًا. إلى رصدى نبض قلبى عندما أسند دماغى إلى الوسادة وتتضح معالم الدفق. وصولاً إلى استيقاظى مرهقا مكدود لعدم نومى كفايتى، لاستدعائى لحيظات بعيدة صار مستحيلاً بلوغها لاندماجها التام بالعدم، لافتقادى الحماس فى مواجهة نهار جديد. تساؤلى عما سيحمله من جديد. هل سأرى مثله غدًا؟ توقى إلى خلاص غامض. إلى رفرفة، إلى تجاوز موقوتية إقامته فى هذا الحيز.

هذا كله، وأمور شتى هائلة وأسباب. طالعتها فى جلسة تلك السيدة على حافة السرير، داخل غرفة فى فندق ما.

عندما رأيتها أصغيت إلى صوتى لحظة نطقى. طالعت فوقى وتحتى. ألممت بحضورى بدون مرآة. أحطت بوضعى من سائر لحظاتى عند لزومى الجلسة ومثولى بين اللحظة وسلوكى نفس الإطراقة وامتثالى لعين البصة.

لا يعنيني الماثل أمامي. أنثى أم رجل. إنها هيئتي، اهتمامي بالنوع وليس الجنس. القعدة والإمساك بالكتاب وانحناءة الكتفين. أوضح لي هذا النوعية الإنسانية. السرير مرتب، كأنه لم يلمس بعد، الثوب على المقعد الوثير الصوان مواجهة. ما بيني وبين الفراش حقيبة لم تفتح بعد. لا تخلو حجرة مفتوحة من حقيبة سفر. من موقوتية عابرة، الضوء غسقي، ربما غروبي، تلك المساحة الملساء من الأصفر المحفوفة بالعتمة من أسفل، الأصفر يسري من النافذة في الخلفية، يصبغ الجسد نصف العاري، وجود النافذة هنا انفراجة، طاقة، ربما لا يشير إلى مكان. إنما إلى وقت، إلى حيز ما، إلى شيء يستعصي عليّ الإلمام به، لا بالمكان ولا بالزمان. ما بينهما، أو ما يصلهما، لا أعرف.

الزمن يمكن تحديده، خفوت الضوء القادم، صفرته تنبئني بالوقت. لكنني في هذا الحضور الغروبي، الخابي. الملم بالموجودات. أرى لحيظات ما بعد استيقاظي. استرجاع نثار أحلام. بقايا رؤى. بعضها يخلف عندي أثرًا يتنوع طبقًا للمضمون والعناصر، أقوى ما يكون خلال فترات استيقاظي القصيرة ليلاً، خاصة قرب الفجر، رغم ذلك أفيق بعد ساعتين على الأكثر، أحيانًا يضغط البول على مثانتي، أو بتأثير حلم عنيف الإيقاع والمواقف. تطول أو تقصر فترات الاستيقاظ تلك. ينشط ذهني خلالها فأخطط وأرتب، أطرح خاطر مواصلة النوم عني. لا أفكر في إمكانية استئنافه. ذلك أقصر الدروب إليه مرة أخرى. في الليالي السابقة على سفري يقضني أرق، ما يثير جزعي أن يشرق نهار رحيلي عليّ صاحيًا، لم أعرف الوسن، في كل الأحوال انقضى سلسال نومي إن في سفري أو إقامتي، ينتهي بي الأمر أو يبدأ إلى هذا الوضع الذي أتقن هوبر اقتناصه. تثبيته. تصويره بكافة ما يحوي، ما يتضمن. أسند جبهتي إلى راحة يدي. أحدق أمامي. أو

تتلامس يداى أبسطهما ما بين ساقى، أتطلع عبر النافذة المغلقة إلى قمم المبانى، إلى قمم الأشجار، فى أسفارى إلى بلاد الغرب لا أسدل الستائر الثقيلة، أبقى الرهيفة، الشفافة، أحتفظ بصلة عبر النافذة المطلة على الخارج، أتجاوز عبرها إطارى. هذا الضوء الحليبى الناعم يهدهدنى ويدثرنى. خاصة إذا عمق الهدوء وانتهت الأصوات.

كم من اللحظات عبرها هوبر ليجسد تلك العزلة، تلك الوحدة، هذا النوء اللامرئى، ذلك الانتظار. انتظارى، عين توقى. أحمل له المنة لأنه أطلعنى على تلك الشابة، أنثى فى مواجهة النافذة، يمكننى القول من تفحص معمارها اللدن أنها لم تتجاوز الثلاثين، جسدها ممشوق، قوى، فاره، رغم جلوسها وانحنائها إلى الأمام مستغرقة فوق مقعد جلدى وثير، أدارته بحيث يواجه النافذة. تتطلع عبرها إلى الخارج، ربما إلى نافذة مقابلة، أو إلى الطريق، أو إلى ذاتها، إلى شىء ما فى ذاكرتها تستدعيه فى هذه اللحظة، ترتدى، حذاء يتضاد لونه الأسود مع بياض جسدها المغمور بالشمس القادم شعاعها من الخارج.

النافذة مستطيلة، عريضة، لايفصح هوبر ولا يوضح حجمها بالضبط. لا نرى منها إلا جزءا يرتبط بالطلة الأنوثية، يمكننى القطع أنها نافذة خصوصية. تنتمى إلى بيت، إلى حيز لا يطرقه إلا من يسكنه، من يقيم به، من يتردد عليه، نوافذ الفنادق عبورية، يطل منها كثيرون، تشبه المرأة التى عرفت رجالاً بلا حصر. يتغير فيها سمت، تبدو علامات للفطن، هكذا البغايا، تفصح النظرة لحظة تلاقى الجسدين، بالضبط قبل تواجهما عن النوعية الكامنة. جرأة البصة. اقتحاميتها. اعتيادها، أو خفرها وتعبيرها عبر الإغماض عن الرغبة الظاهرة فى طلب النشوة، توسل خفى للمساعدة فى بلوغها.

نافذة الفندق مثل البَغىّ، مباحة لطلة من يقيم، وطبيعة المكث فى مقار الإقامة تلك أنها مؤقته مهما طالت، لنوافذ البيوت حضور مغاير، إنها أخص، النظرات انتهاك مستمر، اختراق، توالج وتزاوج، إذا اقتصر الأمر على نفر محدود تصبح النافذة مثل الأنثى التى لم تعرف إلا زوجًا واحدًا أو عشيقًا محددا بعينه.

النافذة التى تطل عبرها هذه الأنثى ذات تفرد، لا يتأكد ذلك من إطارها ومصراعيها إنما من حضور الغرفة، المصباح، خزفى القاعدة، المكلل بغطاء أحمر غامق، تحته مفرش ياقوتى. عند حافته كتابان، على الجدار، خلف الأنثى لوحة زيتية إطارها أبيض، تحتها بمسافة لها قدر صوان. تبدو أدراجه العريضة العلوية. البساط أخضر، لون أخضر صاف، واضح، صريح، الضوء السارى عبر النافذة يكفل ذلك ويضمنه.

إنه مكان إقامتها، مستقرها، ماذا عن وقتها؟

لم يدع هوبر مساحة للتخمين، حدد هو وسمى، أطلق على تلك اللحظة المدونة «الحادية عشرةقبل الظهر»، هكذا عين، فانتفى بذلك إجرائى. للاسم عندى منزلة. ذلك ميراث قومى العتيق. هم الذين فصلوا بين الموجودات بتسميتها فأوجدوها وعينوها، لنتخيل ما الحال لو أن الأسماء لم تعرف، وأصبح الجماد مساويًا للناطق؟

بلغ اعتقادهم حدًا آمنوا معه أن من يبقى اسمه بعد موته لا يفنى، لا ينتهى وجوده فى اللاوجود. إذا ما أراد أحدهم إلحاق أقصى أنواع الأذى بخصمه يقدم على كشط اسمه من جدران مرقده الأبدى، من البردى، من سائر موجوداته. هذا موضوع يطول الحديث فيه. لعلى بالغ يوما ـ إذا سمح الوقت ـ على تدوين أخصصه للأسماء وما يتصل بها.

إنها «الحادية عشرة قبل الظهر». إذن . . الساعة الحادية عشرة، الضوء قوى ثمة شىء حيرنى، لماذا تمكث المرأة عارية إلا من الحذاء فى هذا الوقت؟

هل اليوم عطلة؟

ربما يكون الأحد، لكن هوبر حدد الساعة ولم يعين اليوم، أكاد أوقن أنه الأحد. ربما بالإحالة إلى لحظة أخرى أفصح أنها لصباح أحد، لم يلتقطها من داخل غرفة، إنما من الخارج. من طريق خال تمامًا فى مدينة ربما تكون صغيرة ضاحية، مبنى مستطيل، جدران الطابق الأول منه حمراء غامقة، تتخللها نوافذ كلها مغلقة، النصف الأعلى لكل منها مصمت، الأسفل من مصراعين بينهما فرجة معتمة، تكرارها بث الشك عندى. إذ أنها متماثلة. ثم متجر صغير، واجهته زجاجية لا يمكن معرفة ما يعرضه، المدخل معتم أيضًا، صباح باكر ليوم إجازة راكد، لا يعرف الحركة المعتادة أيام العمل، تعرف الشوارع والبيوت الوحدة. العزلة كما يعرفهما البشر. عرفت مثل ذلك، خاصة فى المدن الصغيرة التى قدر لى أن أمضى فيها وقتًا، أصعب أوقات مرت علىّ فى سمالوط. عند إقامتى فى هذا القصر الكبير بمفردى والذى جعلوه مقراً لصنع السجاد اليدوى. لم أعتد قط على أصواته. وحركة التيارات الخفية فيه، أصعب ما عرفته أيام العطلات، عندما أستيقظ على مسرى الصمت واللاتوقع، لا أنتظر قدوم أحد من العاملين، كبارهم وصغارهم. أجد نفسى مقصيا، منسيًا، مبعداً، أقارن بين ما يمضى علىّ من عزلة ونأى. وما كنت عليه أصباح الجمع بين أهلى عندما أستيقظ مبتهجًا لأننا سنفطر جميعًا صحبة، نتجمع حول الطبلية. أمى تدرك مثلى فرادة هذا الصباح، تقلى الفطائر، أو الزلابية، وتعد طبق

الفول بإتقان. لا نأكل بسرعة حتى نلحق، دائمًا ما أصغيت إلى هذه العبارة:

«أريد أن ألحق . . ».

فى أصباح الجمع لا أبى يخرج مبكرًا ليلحق بالعمل. ولا أتعجل ارتداء ملابسى أو تناول إفطارى لألحق بالمدرسة أو الشغل فيما بعد، غير أننى بعد الظهر تدركنى مصادر الوحدة فى المدينة، من الواجهات المغلقة، من الدكاكين. المتاجر التى انطفأت أضواء واجهاتها. قلة المارة، وهمود مصاحب، يكشف عن كثير، ويخفى أكثر.

تعرف البنايات الوحدة الصعبة كأعمدة التلغراف المحاذية للخطوط الحديدية، خاصة فى زمن الخريف والشتاء، عندما تهب الرياح وتثير الدوامات فى الطرق، وتقتلع ذرات التراب من مكامنها والوريقات التائهة.

عرفت مدنا ضخمة من سماتها العزلة، مبانى موسكو الضخمة نوافذها على مسافات متوالية، مغلقة، واجهاتها متشابهة، الطرق كالصحارى المرصوفة، لا توجد مقاه أو بارات، أخبرنى من أثق به أن المقاهى نادرة حتى لا يقعد الناس معًا ويتبادلون الأحاديث. الأخبار، النميمة. لم أعرف المدينة بعد انتهاء زمنها الاشتراكى، رغم إتاحة الفرصة لزيارتها غير أننى اعتذرت لأسباب متعلقة بى، ليس هذا أوان أو محل تفصيلها. المبانى المرتفعة. المغلقة التى تشكل المدن الضخمة. تكون أكثر إثارة للأسى. للوحشة، من بيداء مقفرة، ليقينى بوجود البشر خلف تلك الجدران واستحالة التواصل أو القربى منهم.

ستظل لحظة صباح الأحد الباكر التى التقطها هوبر متضمنة لكل

لحظات العزلة والانقطاع عن الخلق رغم وجودهم فى متناول حواسى، أراها فأشهد بنايات شتى، وليس واحدة، ألم بنوافذ عديدة متباعدة. ليس فى مبنى واحد فقط. فالنوافذ لا تلتقى قط حتى لو تجاورت فى جدار واحد، ليس أشد عزلة من النوافذ المتجاورة، إنما أعنى نوافذ البنايات التى تطلعت خلالها من داخل إلى خارج، أو رأيتها من خارج.

بقدر إحاطتى بصباح الأحد الباكر، تحيرت فى مواجهة الحادية عشرة قبل الظهر، إذا كان فى اللحظة الأولى إجابات، فإن الثانية مثيرة لتساؤلات، والسؤال عندى أشق وأصعب، بل ربما تضمن من الإجابة ما لم يحتو عليه السؤال.

هذه الأنثى العادية يخفى شعرها الطويل ملامح وجهها، برغم ذلك أكاد أثق من معرفتى لها. إننى قابلتها من قبل، حضورها يكفينى سواء طالعتنى بملامحها أو أشاحت!

طلتها تلك إمعان فى التفكير. أم انتظار قدوم شخص ما. أم أمر ثالث لا هذا ولا ذاك. من الوضعية، من النظرة، أميل إلى نفى الانتظار، وإذا كان ثمة انتظار فلأمر، لشئ، لقادم من بعيد. لن يظهر بعد لحظة أو لحظتين، انتظار ممتد، لا يبدأ فى لحظة أخرى فى أخرى. يسرى منى إليها، يتجاوزها إلى من سيحل مكانها أو يسعى موضع خطاها أو يمثل أمامها أو بعدها، من أجهل، من لن أجتمع بهم، لن أراهم أبداً، لا يوجد أدنى احتمال لتماس محتمل حتى بالنظر.

انتظارى قديم. انتظارها حالى، متجدد، دائم، انتظار الانتظار. ما يفرق أن انتظارى حتما سينتهى، له حد. أما وضعها هذا فلا نهاية، ممتد مع اتجاه نظراتها. إذا لم يحط به بعد. سيظل قائمًا. دائما، مستمراً، متمما للحاجات!

هل تتدثر بالشمس؟

لا أظن، رغم أن أشد المواضع إضاءة تلك المحيطة بها، إنها الانتظار عينه. أما التوجه إلى الشمس مباشرة فيمكنني مطالعته فى لحظات أخرى أمسك بها هوبر، خاصة عندما دنا وصار قاب قوسين من تلك اللحظة الفاصلة بين ما كان وما لن يكون.

أعرف ذلك. أحيط بمثله. عندما رأيت هذه الأشعة كلها. والتطلع اليها من ناس لا يعرف بعضهم بعضًا ولم يلتق أحدهم بالآخر. وإذا تجاوروا فى لحظة، فإنهم يتطلعون صوب مصدر الضوء، إلى السماء، إلى قرص الشمس. كلهم توق، منهم دفق. وتفصيل قول، لكنهم لا يتخاطبون، لا يتحدثون لا يخاطب أحدهم الآخر. رغم أنهم متلاصقون. يتحاورون فى خلاء مطلق. فهل تلك جيرة العدم؟

أيا كان موقع النوافذ فى البناية؟ سواء أطلت على البحر، أو على خلاء ممتد أو على بناية أخرى، أو على طريق موحش صباح أحد. أو عند منتصف الليل، فثمة خلاء، كلما تضخم الكيان صارت وحدته أقسى وأصعب، ولكن ليس مثل وحدة الإنسان شيء، خاصة من يفتقد الإلف، أو ينوء كاهله بسنوات طوال أورثته أثقالاً. هنا تكون النوافذ ملاذا إلى آخرين. سواء كانوا عابرين. أو مطلين. أو لا وجود لهم، نتوقع ظهورهم. إنما هذا كله محاولة للاستئناس بالأنس، بالمثل، بالجنس، يصحبه توق إلى الشمس، إلى الضوء، إلى النفاذ صوب بدايات المنابع، عندما يعى الإنسان أن ماتبقى أقل وأقصر مما مضى، حتى مع مضى الأحوال بشكل طبيعى، مع نفى الهجومات والبغتات القاضية، فإن حال المسافر المتأهب يغلب عليه، والمسافر المتأهب غير المسافر بالفعل، المتأهب ينتظر. يتطلع باستمرار، لو يقيم فى منزله ينظر

إلى أشيائه الحميمة بعينين تسيلان وداعًا، ، ولو يسعى فى طريق يحاول تثبيت المرئيات، ليس ما يعاينه فقط، إنما ما فاته، ما أصبح بالنسبة إليه أطيافا، مجرد مرئيات يمكنه استدعاءها أحيانًا، عندما أقف خلال الأعوام الأخيرة بين جدران مكتبتى، أتطلع إلى الكتب المتراصة، كثير منها أعرف أننى لن أطالعه أبدًا، وكثير منها أصبح محتواه جزءًا منى، لكننى أثق أننى لن أستعيده أبدًا. لن أصحب راسكولينكوف ولا كابتن أخاب ولا جيوفانى دروجو ولا أزميرالدا ولا كمال عبد الجواد ولا بيرانجيه، حتى لو تفرغت وانثنيت فلن أجد ما وجدته أول مرة، لذلك أتطلع إلى كل منهم عبر نافذتى الداخلية. غير المرئية، علّنى آتى منهم بقبس.

فى لحظة «الحادية عشرة قبل الظهر» انتظار مضن، مقرون بخيبة ما، بهجر ما، بألم ما، هكذا تنبئنى وضعية الجسد العارى تمامًا إلا من حذاء لا يشى بتكوين القدمين، إلا أن لحظة أخرى أسماها «صباح الأحد» تُشيع صوبى رسالة أخرى، مضمون اللحظة أنثى يمكننى القول إنها أربعينية أو أكثر قليلاً، تقعد على حافة فراش، تثنى ساقيها وتبسط يديها فوقهما. إنها فى مواجهة نافذة عريضة، ربما تكون مفتوحة وربما تكون زجاجية تبدو منها سماء صافية، زرقاء وبناية حمراء منخفضة، نوافذها متشابهة، متساوية، متجاورة، تشبه بناية «صباح الأحد». عينا الأنثى معتمتان، مساحتان من لون أسود قاتم. حالك، لكن النظر كله منبعث منهما، صوب نقطتهما، باتجاه مصدر الضوء، باتجاه الفراغ، باتجاه ما لن يوجد، هذا وضعى، وتلك بصتى.

لا يبدو من تلك الغرفة إلا الفراش. والنافذة، لا يمكننى تحديد، للإقامة العابرة هذا الحيز أم المؤقتة؟. فى لحظة أخرى محورها الشمس أيضًا تقف أنثى مفردة، عارية تمامًا فوق مستطيل من الأشعة الكونية.

يفرش مساحة مساوية لفراغ النافذة التى لا نراها، لا نلمح منها إطاراً أو فراغًا، ما يدل عليها جزء من ستارة لها حضور الضوء، أما النافذة الجانبية فتسفر عن ضوء أزرق، وقمم تلال خضراء، عند سفرى بالطائرة، خلال عبور النهار إلى الليل أو العكس، يبدو الضوء واضحًا ناصعًا من جانب والعتمة من جانب، ينشطر الكون إلى قسمين متباينين لو أننى وقفت فوق اليابسة، أو فوق نقطة ما من البحر وتطلعت لما رأيت الضدين بهذا الوضوح. أمام البيوت فى لحظات أخرى أرى زوجين اثنين، اثنين رجل وامرأة، شاب وشابة بالتحديد يقفان أمام بيت. أوضح ما فيه النوافذ المستطيلة، السلالم المؤدية إلى أين، لا أدرى، رغم تقاربهما. رغم تلاحقهما تقريبًا إلا أنهما منفردان. منبتان. لا يعنى القرب التواصل. كلاهما شاخص نحو منبع الضوء، فى لحظة أخرى أطلق عليها هوبر «القصة الثانية لضوء الشمس» أرى بيتين صغيرين متجاورين، كأنهما على حافة، امرأة عجوز تمسك كتابًا لا تقرأه لا تتطلع إلى الشمس، على حافتى الشرفة أنثى شابة، ترتدى ما يشبه لباس البحر حيث كلاهما متطلع. النوافذ خلفهما، غير أن أنظارهما مشدودة إلى النافذة الأشمل، النافذة التى لا تحد، من أى نقطة يمكن أن نتطلع منها فكأننا نتطلع من أى موقع ينتمى إليها. تمامًا كالدائرة، علمنى شيخى الأكبر أن النقطة مركز الدائرة، وأى نقطة بالدائرة متساوية مع الأخرى، أليست السماء نافذة كبرى على الكون؟، هل تعى شخصيات هوبر ذلك؟ ربما يكفى يقينى أنهم يتجاوزون بالنظر. بالانتظار الكينونى حضورهم المادى. يتطلعون صوب مصدر الضوء، إلى أشعة الشمس، تختلف اللحظات، كذا الوقفات من بيوت مشرفة على جبال، على سهول، نوافذ مطلة على ألوان، زرقاء، صفراء، إناث وحيدات، منبتات، بعضهن يفضن أنوثة

وملاحة، يتناولن ـ فى أشعة الشمس العابرة لزجاج المطعم ـ القهوة بمفردهن. ذلك التوق إلى الدفء الذى تفرغ هوبر لتصويره خلال سنوات ما قبل الختام، هل تبرز من جانب آخر برودة المراحل النهائية؟ هل تهب نذرها على الإنسان وهو يسعى خطاه الأخيرة. الدانية، فيتوق ويهفو، ويتطلع إلى الإلف، إلى الحرارة، إلى الضوء إلى كافة ما يناقض اللاوجود؟

منذ أكثر من ثلاثين عامًا مع بدء ترحالى وانتقالى من صوب إلى صوب. من بر إلى بحر، من فضاء إلى آخر، اعتدت عند بلوغى أماكن رقادى أن أفتح النافذة، وأطل منها على ما أراه، ما يمكننى مطالعته، ألتقط صورة، أحتفظ بتلك الصور. لم أكن أدرى لماذا أقدم على ذلك؟ كنت حريصًا على الاحتفاظ بكل ما التقطته لأول مشهد طالعنى عند وصولى إلى أرض غريبة عنى، وخطر لى يومًا أننى ربما أصف ما رأيت، ما عاينت، أن أفصل وأذكر، الآن، أتطلع إلى بعض النوافذ وما يبدو منها فلا أقدر على التحديد، غير أن ذلك لم يحل بينى وبين الاحتفاظ بكل ما التقطت وما تمكنت من تثبيته من لحظات، وعندما توكلت على البارئ. العلى، مدور الأفلاك. مدبر الليل والنهار، خطر لى أن أنقص بعضا مما يرتبط بكل لحظة جرؤت واستطعت تثبيتها والاحتفاظ بها، لكن إدوارد هوبر أناب عنى، قام بكل ما قصدت إليه. ولخص وركز وعبر كما لا أقدر على مثله، كتب باللون ما أقدر على استيعابه أو التعبير عنه، أو وصفه بدقة، أو تثبيته، أمسك بما لا يُمسك. وعبر عما يصعب التعبير عنه. هكذا ألغى خططى وأفنى مشروعى، ولم يتبق لى إلا صدق النية. وإيمانى بنظرة المتطلعين عنده إلى الشمس، الذين يفيضون انتظاراً. المتجاوزين فراغ كل تلك النوافذ، وهذا ما أفقدنى كل قدرة على المفاوضة فلست إلا طيف لون من أطياف ألوانه.



نـوافـذ مـؤديـة

لا التلقين، ولا المعاينة عند اللحيظات الفارقة المصاحبة للانتقال من حال إلى حال، ولا المسارات التى حددت لى مجال الرؤية واتجاهات المداولة، إنما أنا موشك على التوصل بقبس من المعنى، ولمس حافة الحافة بعد طول تطلع وتساؤل مصحوب بحيرة تلى الأخرى، مفض بكلى إلى كافة ما لا يتوقف أمامه الآخرون بالفحص والبحث. صرت إلى نظر أهدأ رغم كافة ما عرفته من شطط ومارسته من نزق، ثقتى أن شفيعى حسن النوايا، وما يضفى علىّ السكينة، يجنبنى الزلل الآن أن بعضاً ممن اهتموا بأمرى استغرقهم ذلك وفهموا عنى.

أقول لمن يجهلنى سواء كان قريبًا أو نائيًا إن ما قصدته بنوافذ الوداع مغاير تمامًا لما يدل عليه المعنى الظاهر. لا أستدعى لحظة تحرك القطار على مهل مفارقًا الرصيف وأبى الذى أخفى مشاعره وحاش دمعاته فى أول معاينة لانتقالى بعيداً، سفرى للإقامة وليس لمهمة أعود منها، حتى تطلعى من نافذة السيارة الرمادية فى الصباح الباكر محاطًا بحارسين مسلحين يرتديان الملابس المدنية، كنت أتطلع إلى النواصى، إلى إعلانات عن أفلام ستعرض أو تعرض بالفعل، إلى مصلحة الدمغة والموازين، إلى قبة قلاوون، إلى لافتات شارع المعز، إلى شرفات البيوت، إلى معالم اعتدتها وأخرى أبلغها بالبصر أول مرة فلم يحدث أن انتبهت إليها، إلى معنى خروج رجل أو امرأة من باب بيتى لا أعرف شيئا عنهما أو عن البناء. لكن مجرد تحركهما بدون قيد، بدون حراسة

يجعلهما مع غيرهما كأنهما يخطوان فى فراغ آخر، عالم مغاير، لكم تساءلت: هل سأخرج مرة أخرى مثل هذا أو تلك، هل سأرى تلك النواصى ومداخل الدروب مرة أخرى؟

لا أعنى بالوداع تلك الفترات الطويلة التى أمضيتها جالسًا صامتًا أمام نوافذ رافقت انتظارى إجراء تلك الجراحة التى شق خلالها قلبى. لا النوافذ التى سبقت، ورحلت منها إلى أيام مندثرة، وطالعت أوقاتًا تبددت، ولا تلك التى رأيت منها الأفق البادى وهبوب العاصفة التى شاهدت بداياتها من خلال النافذة العريضة المطلة على البحيرة التى لم يكن بوسعى رؤية شاطئها الآخر، ليس بسبب رقادى الإجبارى، إنما لاتساعها، أخبرونى أن قطعها يستغرق ثلاث ساعات.

لا أقصد أيضا نظرى عبر نافذة الطائرة عند بدء اندفاعها للإقلاع. لحظة مفارقة العجلات للأرض التى سعيت فوقها، منطلقى، و التى آمل أن يحتوى ما سأصير إليه ثراها.

ليس هذا كله.

صار للنوافذ بعد الاستغراق والفحص حضور مغاير، لا يقبل التحديد العينى، أو التأثير اللفظى، مهما اتسع أو ضاق.. لا أدرى ليشمل ما لا تدركه الرؤى المباشرة المستوعبة من الأذهان وسائر القوى المحركة، كل لحظة مستعادة طاقة، كل رؤيا ثغرة تنبئ باليسير من المجهول، كل هبة من نسق يمت إلى نغم أو رائحة، لواح جزء من مدخل، مسافة من طريق، ناصية، مجرد واجهة، استعادة الهفوف السارى. ألم يرتبط عندى الريحان بالأبدية بالعبور إلى الأفق الآخر لوقوفى يوما بصحبة أبى على مقبرة شيخ جليل بقى منها عندى الشذا والهفوف ونسائم نعيم.

نزولى تحت سطح البحر فى غواصة، تطلعى من نوافذها الدائرية الصغيرة، اقترابى إلى أقصى حد من السطح الزجاجى السميك، ابتسامى لنفسى، رغم جهلى العوم وخشيتى الماء، أصل إلى مواضع لم ولن أبلغها، بل سيصعب على تحديدها فيما بعد، إنه البحر، عند عمق معين فوجئت بلا نهائية اللون الأزرق قبل الوصول إلى أعماق أخرى يتلاشى عندها كل ضى. كافة الألوان، هذا الأزرق فوقى وتحتى، من كل جهاتى، أدركه رغم أننى أقف فى حيز ضيق، لا تكون حركة داخله إلا لضرورة قصوى غير أن هذه الدائرة التى أتطلع منها تكفى، تدلنى على كثير، هذا الأزرق اللانهائى ليس إلا امتدادا لزرقة السماء، فراغ ما فوق يوزايه الماتحت، هنا أمر دقيق ربما أفصله فى دفتر أخصصه للألوان، غير أن تلك اللحظة المارقة والرؤيةالتحتية أودعت فى نفسى اثرًا ومعنى، كلما تطلعت إلى الزرقة النهارية البادية من النوافذ المستديرة، الطيران عبر الأعماق، عبر اللانهائى حتى وإن بدا محدودا بالأفق الدائرى، ليس هذا إلا خط متوهم، يزول إذ نبلغه، يتجدد مع انقضائه، فى آخر عبور للمحيط، بمجرد اختفاء اليابسة الشاطئ الغربى لفرنسا وبدء التوغل فوق بحر الظلمات القديم، نظرت اللون الأزرق طويلاً، طقس أبريلى جيد، خلو من الغيوم، نهار متجدد كانت الرابعة بعد الظهر عندما غادرت مطار باريس ولأننا نتحرك فى مسار الشمس، فإن الوقت ينقضى ولا ينقضى، هذا ما يعرفه المسافرون ويدركه أكثر الطيارون ومن لهم صلة، يستغرق عبور المحيط سبع ساعات ونصف حتى رؤية البر الأمريكى، تلامس الطائرة الأرض فى السابعة والنصف بتوقيت واشنطن، أى مضى من الزمن طبقا للتوقيت ثلاث ساعات ونصف، ولكن بالفعل سبع ساعات وثلاثين دقيقة، فى ظهر المقعد المواجه لى شاشة صغيرة، يمكن مشاهدة سبع قنوات مختلفة، للأخبار

للأفلام، للأغانى للرياضة، للأطفال، للإعلانات، لمسار الطائرة، أفضل الأخيرة لأعرف موقعى من الكوكب، فوق أى المدن أحلق، فوق أى بحر أو جبل؟ أتطلع إلى المسار طوال الرحلة، فى سفرى هذا لم أر إلا الطائرة، صورة صغيرة عالقة فى محيط أزرق يلون الشاشة كلها، أحيانا تتغير الصورة، ليبدو مطارى الإقلاع والوصول، كل ما يتصل بوجودنا مجرد نقطة بيضاء فوق المحيط الأزرق. وهذا الطريق قطعته مرتين من قبل ذهابا وإيابا، لكل رحلة ظروفها، المغايرة، لو رويت التفاصيل لبدت الثانية أشقها وأوعرها، كانت الوجهة مستشفى كليفلاند، أرض لم أبلغها وكانت احتمالات عودتى منها غير مؤكدة إذ اتصل الأمر بجراحة لها شأن، هذا كله معروف، مفصل فى تدوين خصصته لذلك، عادة لا أستعيد الترحال إلا فى مجمله، غير أن تلك السفرة أحتفظ منها بالتفاصيل، أكاد أرى وقت تقييدى هذا ما اطلعت عليه من نافذة الطائرة رغم أن المرئيات على البعد تتشابه، خاصة الماء الأعظم، هكذا يبدو الأمر لغير المدقق، لكن الجوهر مغاير، فما نراه متصلا فى سياقه، لا أول له ولا آخر ليس كذلك للمتبصر، المتفحص، المقلب للأمر كله، تلك الرحلة بقيت لحظاتها ماثلة عندى، نافذة الطائرة، نافذة الغرفة أثناء انتظار الجراحة، وإعداد الاختبارات المؤدية للحظة الفاصلة، نافذة مستطيلة أرى منها مبانى من طوب أحمر، تمت إلى بدايات القرن العشرين، تطل على ساحة انتظار، خلال قعدتى وصمتى وتركيزى على نقطة ما عبر الفراغ المؤطر استدعيت وعاينت وفحصت أوقاتا شتى، لكن أهم ما أدركته بعد انقضاء الأوقات، إذ لا يكون النفاذ إلى الجوهر فى حينه، للإمعان باللب لا بد من مسافة وطول معاينة، ما أحطت به أن النوافذ تؤدى إلى أخرى، للنوافذ نوافذ، النوافذ شتى وهذا مفروغ منه، منها المغروس فى البنايات،

القاطع لصمت الجدران، المطل، المؤدى، إلى فراغات ما خارج العمائر حتى الأعماق السحيقة للكون، أليست مناظير الرؤية نوافذ، سواء توجهت إلى المجرات السحيقة، أو غاص الدقيق منها فى جسم الإنسان بحثا عن أصل داء، أو لاستكشاف عثرة، ثمة نوافذ نحملها، تُفتح بالواردات رغما عنا، حيث لا نحتسب، فى اليقظة أو المنام تؤدى إلى اللاموجود وأحيانا إلى الخلاصة.

أعود إلى رحلاتى الثلاث عبر المحيط لأسفر عن أمر أدركته فى أرض جد بعيدة، لم تكن رحلتى الثانية الأخطر فى نتائجها، الأعمق فى دلالاتها، رغم شق صدرى وما تلاه، لكننى أعى الآن قرب تمام فراغى من هذا التدوين، أنها الثالثة، ليس لأنها آخر حد القلة وأول حد الكثرة، وليس لأن الثالثة ثابتة كما يقول الأسلاف، ولكن لهذا المعنى الذى لم أمسك به تمامًا إلا مع دنوى من الحد.

كان الفندق يقع قريبا من مقر جامعة جورج تاون. منطقة أنيقة البنيان، عتيقة التكوين أو هكذ توحى. من النافذة أطل على أفق مفتوح تتوسطه مسلة مصرية الشكل، حديثة التكوين، بيضاء بغير نقوش، قمم بيوت، خضرة نباتية كثيفة، بعض قمم المبانى الحكومية الفيدرالية، ضخامة، متانة، مرجعية يونانية وإغريقية، ثمة ما يشبه بنايات موسكو، عمارة القوة والسطوة، تشابه الواجهات، النوافذ المتساوية كالجند فى العرض، عمائر شديدة التأثير، الكابيتول، البيت الأبيض، البنتاجون، تنتظم الطوابير للفرجة على المسموح برؤيته، لم أكلف نفسى عناء الانتظار. فقط قصدت متحف الفن الحديث، لأرى أصولا لبيكاسو وماتيس وخوان ميرو، علمت بوجودها هنا، أما هوبر فطالعت بعض الأماكن التى قصدتها بما تزودت منه، الواجهات

العريضة للمطاعم، النوافذ، الضوء، جلوس البعض بمفردهم وكأنهم غادروا لوحاته ليعرضوا ما هم عليه هناك للناظرين، كنت ملما بوجود لوحاته فى نيويورك، لكننى لم أتحرك لانعدام الدافع رغم إلحاح صاحبى المغربى أن أصحبه إلى هناك وأن نمضى ليلتين، أن نرى المدينة بعد اختفاء البرجين، غير أننى اعتذرت، عدت إلى نافذة الفندق، أطل منها ليلاً، و عند الصباح الباكر، وقت الغروب، خلال الأيام الخمسة التى أمضيتها لم أكف عن التطلع، ولم أتوقف عن التساؤل، لماذا جئت؟ لماذا قطعت المسافة؟ لماذا عرضت نفسى لذلك الإرهاق الذى أدركنى فوق المحيط لقلة الحركة واختلاف المواقيت وشدة الاندفاع. هل قطعت هذه المراحل كلها لألقى محاضرتى فى الجامعة، ولأرى هذه البنايات، وتمر بى وجوه لا أتواصل معها، ولو امتدت الجسور فهل ثمة وقت؟ هل لدى ما يكفى من الرصيد؟

بدأ عندى توق للعودة إلى ديار الإقامة مع لوم خفى لما ضيعته من وقت، لم أهتم بدعوة للسهر هنا أو قضاء وقت مع جماعة تهتم بلقائى، هذا حال دقيق يشبه ما وصفته من قبل عند رؤيتى ديبورا العاملة فى المطعم الباريسى القديم، من صوتها إلى قوامها، من صدرها إلى ردفيها مرورا بملامحها المنسقة، المتناغمة، خاصة الصلات القائمة بين عينيها وشفتيها، رهافتهما وتكاملهما، رغم أنها أدركت ما عندى، خاصة عندما صافحتها مودعًا، وقلت مجاملاً إننى أتمنى رؤيتها فى مصر. فقالت بتواطؤ بين: عنوانك عندى، حتى لا يسمع من يصحبنى، ذكرت أمرها فى رشحات الحمراء فلم تكن إلا رشحة جلية، حارة منها، واضحة غير مستعصية، عند مصافحتى ديبورا تلك أتوقف كثيراً، لحظتها بدأ ذلك الدبيب الخفى، لأنه أول إدراك له وانتباه إلى دخولى فيه، أو بلوغه منى، الأمر واضح، بيّن، له صلة بالرغبة

الدافعة إلى الاكتشاف، إلى الوقوف على ما نجهل، وهذا أمر يشتد إذا ما تعلق بالأنثى، أو الديار المجهولة، خاصة المدن، لو رأيت ديبورا قبل عقدين أو ثلاثة لفتكت بها فى مخيلتى، إذا استحال الضم فى الواقع، لكننى لم أنزع، رغم مثولها ولطفها البادى ومجاوبتها، اعتذارى عن السهر ليلة الأحد والمدينة كلها تتدفق إلى الشوارع والرغبات تزحم الفراغ يشبه حياديتى إزاء ديبورا تلك إزاء أمور أخرى لم يتبق منها إلا نثار، نثار جد رهيف، سأحاول الإمساك به عبر التدوين، علىّ أوفق وأرضى، أما تطلعى عبر النافذة صامتًا من داخلى، غير مستبشر بظهور ما يلفت وينبه فأرسى يقينى أن تطلعى عبر نوافذى غير المرئية أنضج، وأن ترحالى إلى ما يكمن داخلى أجدى، لذلك نويت الإقامة.

جمال الغيطانى

نوفمبر ٢٠٠٢

نوافذ النوافذ

لكن أهم ما أدركته بعد انقضاء الأوقات، إذ لا يكون النفاذ إلى الجوهر فى حينه، للإدمان باللب لا بد من مسافة وطول معاينة، ما أحطت به أن النوافذ تؤدى إلى أخرى، للنوافذ نوافذ. النوافذ شتى وهذا مفروغ منه، منها المغروس فى البنايات، القاطع لصمت الجدران، المطل، المؤدى إلى فراغات ما خارج العمائر حتى الأعماق السحيقة للكون.

يواصل جمال الغيطانى مشروعه المثير فى دفاتر التدوين ليجعل من عجينة تجاربه الحيوية منذ الطفولة الباكرة خميرة معتقة تنمو فيها نوازعه الشهوانية وتطلعاته النورانية وقدراته الفذة على خلق اللحظات وتسجيل الأحلام للإمساك بمفاصل جماليات الأمكنة الهاربة فى ذاكرة الأزمنة البعيدة، مبتكرا شكلا جديدا للسرد، كأنه يعوض المساحة المشغولة بالآخرين ومواقفهم بتلك التجليات الحميمة التى لم يسبق لكاتب عربى أن كرس لها [illegible] الجهد المصفى فى الاستعطار واعتصار الرحيق المركز.

الأهرام [illegible]



6 221102 023207

دار الشروق
www.shorouk.com